

العدد الأول ـ المجلد الرابع والأربعون ـ الربيع (يناير ـ مارس ٢٠٠٩م/ محرّم ـ ربيع الأول ١٤٣٠هـ)

مجمع البحوث الإسلامية
الجامعة الإسلامية العالمية إسلام آباد . باكستان

القيم الحضارية في رسالة خير البشرية ﷺ
(١) القيم العلمية

محمد بن عبدالله بن صالح السحيم

المقدمة:

الحمد لله الذي ملأ قلوب أوليائه بمحبته وتعظيمه، وأفرغ قلوب من سواهم من معرفته وتقديره، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، إله تأله القلوب محبة وإجلالاً وتعظيماً، وتلجأ إليه النفوس رغبة ورهبة، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله وخليله وصفيه وأمينه على وحيه، أرسله الله على حين فترة من الرسل لينقذ البشرية من عبودية الشهوات والهوى، ويصلها بخالق الأرض والسماء، فكان إماماً للسالكين، وكانت رسالته رحمة وهداية للخلق أجمعين وبشارة للعالمين وخلاصاً للمضطهدين، فصلى الله عليه وسلم تسليماً كثيراً، أما بعد:

فإن الباحث حين ينظر في تاريخ الحضارات ويتأمل المكان الذي انطلقت منه هذه الحضارات يجد أن القاسم المشترك بينها كلها أنها قامت على شواطئ الأنهار، أو سواحل البحار، فلا تقوم الحضارات إلا قريباً من مصادر الماء، ولكن حينما تنظر في الحضارة الإسلامية تجد أنها انطلقت من الجزيرة العربية وهي وادٍ غير ذي زرع، فلا ماء ولا نهر، ولكن كان معها ما هو خير من الماء، إنه الوحي الإلهي، وهذا الوحي هو بمثابة روح للحياة وللأحياء، قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ﴾[1].

ولذا كانت الرسالة الخاتمة التي جاء بها نبينا محمد صلى الله عليه وسلم مشتملة على كل ما يحتاج

١- سورة الشورى، الآيتان: ٥٢-٥٣.

إليه الجنس البشري للتعبّد بدين راشد، وإقامة حضارة متكاملة ـ من عقائد وأحكام وقيم ومبادئ ومُثُل، فكانت هذه الرسالة الإلهية أساساً ومنطلقاً ومرشداً للحضارة الإنسانية الخاتمة، ومما يذكر للحضارة الإسلامية أنها لم تُقْص الحضارات السابقة، بل استوعبتها وأخذت ما فيها من محاسن، وزادت عليها، وبينت ما فيها من مثالب، وعجزت الفلسفات التالية والأديان كافة أن تقضي عليها أو تقصيها، وحققت حضارتنا انتصارات عظيمة، وقدمت للبشرية مكاسب عديدة في زمن قصير، يشهد لها بذلك المخالفون لها، يقول جورج بوش الجد ١٧٩٦-١٨٥٩م أستاذ اللغة العبرية والآداب الشرقية في جامعة نيويورك: "لقد وضع (أي محمد صلى الله عليه وسلم) أساس إمبراطورية[٢] استطاعت في ظرف ثمانين سنة فقط أن تبسط سلطانها على ممالك وبلاد أكثر وأوسع مما استطاعته روما في ثمان مئة سنة، وتزداد دهشتنا أكثر وأكثر إذا تركنا نجاحه السياسي وتحدثنا عن صعود دينه وانتشاره السريع واستمراره ورسوخه الدائم. والحقيقة أن ما حققه نبي الإسلام والإسلام لا يمكن تفسيره إلا بأن الله كان يخصهما برعاية خاصة، فالنجاح الذي حققه محمد صلى الله عليه وسلم لا يتناسب مع إمكاناته، ولا يمكن تفسيره بحسابات بشرية معقولة. لا مناص إذن من القول إنه كان يعمل في ظل حماية الله ورعايته، لا تفسير غير هذا لتفسيرِ هذه الإنجازات ذات النتائج الباهرة"[٣].

وحينما تستعرض أصول المقومات التي يتطلبها بناء أي حضارة راشدة تجد أنها لا بد لها من مقومات أساسية وأخرى مساعدة، ومن أبرز هذه المقومات وأعظمها مما يتوقف عليه بناء الحضارات هي:

أولاً: دين صحيح يحقق للفرد عبوديةً للروح، واستقامةً للبدن، وصلاحا للمجتمع، وسلامةً للمنهج، ويرشده إلى الوسائل الصحيحة، ويضمن له سعادة الدارين.

ثانياً: علم صحيح يكشف له الحقائق الغائبة، ويدله على الغايات الصحيحة، ويخبره بحقيقة نفسه، ويمده بالمنهج العلمي الذي إذا سلكه أثمر له النتائج الهادفة، وأراحه من عناء طلب المستحيل، واختصر له الزمن في البحث عن حقائق القرون الأولى التي كشف القرآن حقيقة مسيرتها وبين نهايتها، وأن يشتغل في مجال هذا العلم الصحيح ليثمر له نتائج صائبة تنأى به عن النقائض الجدلية.

٢- لا يقر المؤلف على تسمية الإسلام بالإمبراطورية، فالإسلام دين وحسب.

٣- جورج بوش، **محمد صلى الله عليه وسلم مؤسس الدين الإسلامي ومؤسس إمبراطورية المسلمين**، ترجمة: عبدالرحمن عبدالله الشيخ، دار المريخ، الرياض، ط ١، ١٤٢٥هـ، ص ٣٥٣.

ثالثاً: عدل تام يتساوى فيه الرئيس والمرؤوس، والغني والفقير، وذو الشرف والوضيع، عدل تام يناله العدو والصديق، ويحكم من خلاله على الناس كافة من غير نظر إلى معايير زائفة أو متغيرة بحسب صاحب الحق.

رابعاً: غايات واضحة وسليمة ومحددة، تريح القلب من الحيرة، وتجعل النفس تنفعل من أجل سمو الغاية وسلامة الوسيلة، وتكشف للنفس غياهب المستقبل، فيعمل الإنسان على نور من ربه، يعرف بدايته ونهايته، ويوقن بجزائه وحسابه، ويتفانى من أجل مستقبل جماعي مشترك.

خامساً: حب صادق يلتئم من خلاله شمل المجتمع، وتلتقي بسببه القلوب على الصدق والحب والإيثار، وتتعاون النفوس كأنها أعضاء في جسد واحد، إذا اشتكى منها عضو تداعى له بقية الأعضاء بالسهر والحمى، كل فرد لا يرى أنه أحق بدرهمه وديناره من أخيه وجاره.

وهذه الأصول قد جاء بها الإسلام وأكدها، وحثّ على ما يدعو إليها، وحذر مما يعارضها أو يشينها أو يقضي عليها، كما ستراه في ثنايا هذا البحث إن شاء الله.

وإن القارئ المنصف إذا نظر في أيّ مقوم من مقومات الإدارة أو أيّ مقوم من مقومات الحضارة ثم نظر في نصوص القرآن والسنة النبوية المطهرة سيجد أن القرآن والسنة قد تظاهرا على الدلالة والتوكيد عليها، وعلى سبيل المثال إذا نظر فيما يسمى القواعد العشر أو المبادئ العشرة في علم الإدارة سيجد أن الإسلام قد حثّ عليها وسبق إليها. هذا من جانب، ومن جانب آخر فإن الباحث إذا نظر إلى أيّ موضوع من موضوعات هذا الدين أو مقوم من مقومات الحضارة التي جاء الإسلام بالدعوة إليه ـ ظن لأول وهلة أن الإسلام إنما جاء لهذا الغرض فقط، أو أن هذا الموضوع هو الموضوع الرئيس في الإسلام، لكثرة ما يرى من النصوص الدالة عليه، ولذا فلن أستطيع أن أجمع في هذا البحث كل النصوص المتعلقة بأيّ موضوع تناولته وأشرت إليه، إنما أكتفي بما يدل عليه ويبين مكانته في الإسلام، كما أنني لم أتمكن من الإحاطة بكل مقوم من مقومات الحضارة مما جاء به الإسلام، وإنما حسبي أن أشير إلى أساس هذه المقومات وأذكر أبرزها بحسب اجتهادي، مستدلاً على ذلك من الكتاب والسنة المطهرة.

وقد قسمت هذا البحث إلى ثلاثة مباحث رئيسة هي:

المبحث الأول: القيم العلمية ويندرج تحتها ثلاثة مطالب هي:

المطلب الأول: العلم

المطلب الثاني: الدين

المطلب الثالث: الإتقان

ونحن في هذا العدد من الدراسات الإسلامية بصدد معالجة المبحث الأول من هذه المباحث الثلاثة وسوف يليها إن شاء الله تعالى نقاش حول المبحثين الآخرين بالترتيب الآتي:

المبحث الثاني: القيم الاجتماعية ويدخل تحتها سبعة مطالب هي:

المطلب الأول: الوسطية

المطلب الثاني: العناية بالمرأة

المطلب الثالث: الحب

المطلب الرابع: الرحمة

المطلب الخامس: السلام

المطلب السادس: الخلق

المطلب السابع: النظافة

المبحث الثالث: القيم الإدارية ويندرج تحتها ستة مطالب وهي:

المطلب الأول: الشمول للمبادئ والعقائد

المطلب الثاني:كفالة الحقوق

المطلب الثالث: تنمية المال والمحافظة عليه

المطلب الرابع: العدل

المطلب الخامس: القوة

المطلب السادس: احتمال المخالف

والله أسأل أن يجعله خالصاً لوجهه، موافقاً لسنة نبيّه صلى الله عليه وسلم، وأن يكون من العلم النافع والعمل الصالح، وأن يجعله سبيلاً إلى الدعوة إلى دينه الحنيف، وهادياً إلى صراطه المستقيم، منافحاً عن رسوله وكتابه، "وإلى الله جلّ اسمه ألجأ في تصحيح عملي ونيتي، وإليه أبرأ من حولي وقوتي، ومنه أستمد الهداية لهمي وعزمتي، وإياه أسأل العصمة والولاية لجملتي، والعفو والغفران لذنبي وزلتي، إنه منعم كريم"(٤).

وفي ختام هذه المقدمة أشكر الله وهو أهل الشكر ومستحقه على ما منَّ به ولطف ويسَّر من إتمام هذا العمل المتواضع، وأشكره سبحانه على نعمه المتوالية ومننه المتابعة، وأسأله أن يتم نعمته علي بمغفرة ذنبي وحسن خاتمتي، كما أشكر كل من أعان على هذا البحث. وأذكر القارئ أن هذا البحث سينشر على .

٤- عياض بن موسى اليحصبي، مشارق الأنوار على صحاح الآثار، المكتبة العتيقة، ١/ ٧.

ثلاثة أقسام في ثلاثة أعداد متتالية إن شاء الله تعالى.

والحمد لله رب العالمين الذي بنعمته تتم الصالحات، وأصلي وأسلم على المبعوث رحمة للعالمين.

المبحث الأول: القيم العلمية:

يتناول الحديث في هذا المبحث ثلاثة مطالب تشترك في قاسم واحد، وترتبط برباط واحد، ألا وهو الدليل والبرهان، فالعلم والدين والإتقان لا يقوم ساقها ولا يشتد عودها إلا على دليل جلي وبرهان واضح وحجة دامغة، ولأن العلم هو أساس الدين، وهو مقدم على العمل به، فقد قدمته في هذا المبحث، ثم يتلوه الدين، ثم يختم بالإتقان.. فإليك تفاصيل ذلك:

المطلب الأول: العلم:

هذا الدين العظيم هو دين العلم، ولو سئل المنصف عن أبرز وأعظم جانب من جوانب الدين لقال: العلم، فما من مسألة إلا وللعلم فيها حظ وافر، تأسيسا أو استدلالا، وفي المسائل التالية نتبين مكانة العلم في هذا الدين.

المسألة الأولى: بيان اهتمام الإسلام بالعلم:

يعجز الباحث في هذا الباب أن يحيط بما جاء في الإسلام من جوانب مشرقة تبين اهتمام الإسلام بالعلم، فتارة يأتي الحثّ على التعلم، وتارة يأتي بيان فضل أهله، وتارة الإخبار أن مكانتهم أعظم من مكانة المجاهد في سبيل الله، وتارة بيان أن منزلة العالم أعظم عند الله من منزلة العابد... إلى آخر هذه الجوانب المضيئة التي نذكر طرفاً منها وهي:

الجانب الأول: الحثّ على تعلم العلم:

مما يدل على ذلك أن أول آية نزلت على الرسول محمد صلى الله عليه وسلم هي قوله تعالى: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾[٥]. ويذكر ابن عاشور أن من أغراض هذه السورة: "تلقين محمد صلى الله عليه وسلم القرآن وتلاوته، إذ كان لا يعرف التلاوة من قبل، والإيماء إلى أن عِلمه بذلك ميسر، لأن الله الذي ألهم البشر العلم بالكتابة قادر على تعليم من يشاء ابتداء، وإيماء إلى أن أمته ستصير إلى معرفة القراءة والكتابة والعلم، وتوجيهه إلى النظر في خلق الله للموجودات وخصوصاً خلقه الإنسان خلقاً عجيباً مستخرجاً من علقة، فذلك مبدأ النظر"[٦].

٥- سورة العلق، الآيات: ١-٥.

٦- محمد الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، دار سحنون بتونس، ١٥/ ٤٣٤.

ومما يدل على ذلك أيضاً أن الله أمر رسوله صلى الله عليه وسلم أن يبدأ بالعلم قبل العمل فقال تعالى: ﴿ فَاعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَىٰكُمْ ﴾[٧].

قال ابن جرير عند تفسير هذه الآية: "فاعلم يا محمد أنه لا معبود تنبغي أو تصلح له الألوهية، ويجوز لك وللخلق عبادته إلا الله الذي هو خالق الخلق ومالك كل شيء، يدين له بالربوبية كلٌّ ما دونه، واستغفر لذنبك وسل ربك غفران سالف ذنوبك وحادثها وذنوب أهل الإيمان بك من الرجال والنساء"[٨].

وبين النبي صلى الله عليه وسلم أن طريق العلم طريق موصل إلى الجنة فقال صلى الله عليه وسلم: "من سلك طريقاً يلتمس فيه علماً سهّل الله له به طريقاً إلى الجنة"[٩]. وهذا الحديث ورد مطولاً عند الترمذي بلفظ: "من سلك طريقاً يلتمس به علماً سهّل الله به طريقاً من طرق الجنة، فإن الملائكة لتضع أجنحتها رضاً لطالب العلم، وإن طالب العلم ليستغفر له من في السماء والأرض حتى الحيتان في الماء، وإن فضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر النجوم، إن العلماء هم ورثة الأنبياء، وإن الأنبياء لم يورثوا ديناراً ولا درهماً، وإنما ورثوا العلم فمن أخذ به أخذ بحظه أو بحظ وافر"[١٠].

وقال صلى الله عليه وسلم: "من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين"[١١]. قال ابن حجر رحمه الله في بيان معنى هذا الحديث: "وفي ذلك بيان ظاهر لفضل العلماء على سائر الناس، ولفضل التفقه في الدين على سائر العلوم"[١٢].

٧- سورة محمد، الآية: ١٩.

٨- محمد بن جرير الطبري، **جامع البيان عن تأويل آي القرآن**، المحقق: محمد أحمد شاكر، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى، ١٤٢٠ هـ ٢٦/ ٥٣.

٩- مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري، **صحيح مسلم**، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث، ح٢٦٩٩، ٤/ ٢٠٧٤.

١٠- **سنن الدارمي**، تحقيق فواز أحمد زمرلي، دار الكتاب العربي، بيروت، ط ١، ١٤٠٧هـ، ح ٣٤٢، ١/ ١١٠: قال عنه الألباني: صحيح. انظر: محمد بن ناصر الدين الألباني، **صحيح الجامع الصغير**، نشر المكتب الإسلامي، بيروت، ١٤٠٦هـ، حديث رقم: ٦٢٩٨ و**سنن الترمذي**، تحقيق أحمد شاكر، دار إحياء التراث، بيروت، ٥/ ٤٨، و**سنن ابن ماجه**، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، دار الفكر، بيروت، ١/ ٧٨.

١١- محمد بن إسماعيل البخاري، **صحيح البخاري**، دار ابن كثير، بيروت، ١٤٠٧هـ ح ٧١، ١/ ٣٩، و**صحيح مسلم**، ح١٠٣٧، ٢/ ٧١٨.

١٢- أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، **فتح الباري بشرح صحيح البخاري**، محب الدين الخطيب، دار المعرفة، بيروت، ١/ ١٦٥.

ومما يوضح فضل العلم والتعلم هذا المثال الذي ضربه النبي صلى الله عليه وسلم للعلم ولمن أخذه ووعاه وأدّاه، فعن أبي موسى عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم كمثل الغيث الكثير أصاب أرضاً، فكان منها نقية قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير، وكانت منها أجادب أمسكت الماء، فنفع الله بها الناس فشربوا وسقوا وزرعوا، وأصابت منها طائفة أخرى إنما هي قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلأً، فذلك مثل من فقه في دين الله ونفعه ما بعثني الله به فعلم وعلّم، ومثل من لم يرفع بذلك رأساً ولم يقبل هدى الله الذي أرسلت به"(١٣).

الجانب الثاني: مكانة العلم والعلماء:

من أعظم ما يبين مكانة العلم وأهله أن الله سبحانه وتعالى قرن شهادته بشهادتهم على أجلّ وأعظم مشهود وهو الشهادة له سبحانه وتعالى بالوحدانية فقال تعالى: ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٨﴾ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ۗ وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴾(١٤). قال ابن كثير رحمه الله: "شهد تعالى وكفى به شهيداً، وهو أصدق الشاهدين وأعدلهم وأصدق القائلين: "أنه لا إله إلا هو" أي المنفرد بالإلهية لجميع الخلائق، وأن الجميع عبيده وخلقه وفقراء إليه، وهو الغني عما سواه كما قال تعالى: ﴿ لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشْهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَ ﴾. الآية، ثم قرن شهادة ملائكته وأولي العلم بشهادته فقال ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ ﴾ وهذه خصوصية عظيمة للعلماء في هذا المقام"(١٥).

قال ابن القيم رحمه الله موضحاً فضل ومكانة أهل العلم وذاكراً وجوهاً كثيرة تدل على علو درجتهم نذكر منها ما له تعلق بهذه الآية حيث يقول: "استشهد سبحانه بأولى العلم على أجل مشهود عليه وهو توحيده فقال: ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ﴾ وهذا يدل على فضل العلم وأهله من وجوه: أحدها: استشهادهم دون غيرهم من البشر. والثاني: اقتران شهادتهم بشهادته. والثالث: اقترانها بشهادة ملائكته. والرابع: أن في ضمن هذا تزكيتهم وتعديلهم، فإن الله لا يستشهد من خلقه إلا العدول، ومنه الأثر المعروف عن النبي صلى الله عليه وسلم: "يحمل هذا العلم من كل خلف

١٣- **صحيح البخاري**، ح ٧٩،١/ ٤٢. واللفظ له، و**صحيح مسلم**، ح ٢٢٨٢، ٤/ ١٧٨٧.

١٤- سورة آل عمران، الآيتان: ١٨-١٩.

١٥- إسماعيل بن عمر بن كثير أبو الفداء، **تفسير القرآن العظيم**، دار الفكر، ١٤٠١هـ، ١/ ٣٥٤.

عدوله، ينفون عنه تحريف الغالين، وانتحال المبطلين، وتأويل الجاهلين..."[16] الخامس: أنه سبحانه استشهد بنفسه وهو أجلّ شاهد، ثم بخيار خلقه وهم ملائكته والعلماء من عباده، ويكفيهم بهذا فضلاً وشرفاً. السادس: أنه استشهد بهم على أجلّ مشهود به وأعظمه وأكبره وهو شهادة أن لا إله إلا الله، والعظيم القدْر إنما يستشهد على الأمر العظيم أكابر الخلق وساداتهم. السابع: أنه سبحانه جعل شهادتهم حجة على المنكرين، فهم بمنزلة أدلته وآياته وبراهينه الدالة على توحيده. الثامن: أنه سبحانه أفرد الفعل المتضمن لهذه الشهادة الصادرة منه ومن ملائكته ومنهم، ولم يعطف شهادتهم بفعل آخر غير شهادته، وهذا يدل على شدة ارتباط شهادتهم بشهادته، فكأنه سبحانه شهد لنفسه بالتوحيد على ألسنتهم وأنطقهم بهذه الشهادة فكان هو الشاهد بها لنفسه إقامة وإنطاقاً وتعليماً وهم الشاهدون بها له إقراراً واعترافاً وتصديقاً وإيماناً"[17].

وبيّن جل ثناؤه في آيات كثيرة أنه يرفع درجات العلماء فقال عز شأنه: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾[18]. وأنهم لا يستوون مع من ليسوا من أهل العلم فقال سبحانه: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾[19]. قال ابن القيم رحمه الله: "نفى سبحانه التسوية بين أهله وبين غيرهم، كما نفى التسوية بين أصحاب الجنة وأصحاب النار فقال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾، كما قال تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِىٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِۚ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ﴾ وهذا يدل على غاية فضلهم وشرفهم"[20].

الجانب الثالث: بناء المنهج العلمي:

أقام هذا الدين لأتباعه منهجاً علمياً رشيداً في النظر والاستدلال والتدبر والتفكر وكيفية التعامل مع المستقبل، وبين في كل فن وعلم ما يحتاج الإنسان إليه، والأصول التي يرجع إليها وينطلق

١٦- أحمد بن الحسين بن علي البيهقي، **سنن البيهقي**، محمد عبد القدر عطا، مكتبة دار الباز، مكة المكرمة، ١٤١٤هـ، ١٠/٢٠٩.

١٧- شمس الدين محمد بن أبي بكر المعروف بابن قيم الجوزية، **مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة**، دار الفكر، بيروت، ص ٦٣-٦٦.

١٨- سورة المجادلة، الآية: ١١.

١٩- سورة الزمر، الآية: ٩.

٢٠- المرجع السابق، ٦٥.

منها، وسأشير إلى شيء من ذلك فيما يلي:

أولا: المنهج العلمي في الاستدلال:

وهذا المنهج يقوم على ركائز وأسس متينة لا تميل مع الهوى ولا تخضع لتقليد موروث، أو تحابي رئيساً متبوعاً، وهذه الركائز والأسس هي:

١- الاعتماد على الدليل وعدم الإيمان والتسليم لما لم ينصره الدليل، ولذا أقام سبحانه الأدلة العقلية البرهانية الكثيرة العظيمة على مسائل الإيمان، كقوله تعالى: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُوٓاْ ءَالِهَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ ﴿٢١﴾ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٢٢﴾ لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴿٢٣﴾ أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً قُلْ هَاتُواْ بُرْهَـٰنَكُمْ هَـٰذَا ذِكْرُ مَن مَّعِىَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِى بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْحَقَّ فَهُم مُّعْرِضُونَ﴾[٢١]. فانظر كيف أقام الدليل وطالب المخالف بالدليل البرهاني فقال: ﴿هَاتُواْ بُرْهَـٰنَكُمْ﴾. وبيّن سبحانه وتعالى بالدليل العقلي أن الإله لا يمكن أن يحتاج إلى الطعام، لأن من احتاج إلى الطعام احتاج إلى أن يتخلى فقال عز شأنه: ﴿مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ ٱنظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلْـَٔايَـٰتِ ثُمَّ ٱنظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾[٢٢].

ونهى النبي صلى الله عليه وسلم المسلم أن يكون إمعة متابعاً للناس لا يسأل عن هدى، ولا يسترشد بدليل ففي سنن الترمذي عن حذيفة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لا تكونوا إمعة تقولون إن أحسن الناس أحسنا، وإن ظلموا ظلمنا، ولكن وطنوا أنفسكم، إن أحسن الناس أن تحسنوا، وإن أساؤوا فلا تظلموا"[٢٣].

٢- عدم التقليد والتحذير من متابعة الآباء والأسلاف إذا كانوا على ضلال فقال تعالى: ﴿بَلْ قَالُوٓاْ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَـٰرِهِم مُّهْتَدُونَ ﴿٢٢﴾ وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَـٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾ قَـٰلَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ ءَابَآءَكُمْ قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَـٰفِرُونَ﴾[٢٤]. فدلت هذه الآيات على أن الإنسان الذي لم يتحرر من تبعية الآباء والأسلاف يترك الحق ولو بان له دليله ويتعلق بما عهد عليه آباءه.

٢١- سورة الأنبياء، الآيات: ٢١-٢٤.

٢٢- سورة المائدة، الآية: ٧٥.

٢٣- سنن الترمذي، ح ٢٠٠٧، ٤/ ٣٦٤.

٢٤- سورة الزخرف، الآيات: ٢٢-٢٤.

٣- التدبر والتفكر فيما يلقى على الإنسان وأن يُعمِل فيه عقله ويتأمله بفكره، لينظر أحق هو فيتبعه، أم باطل فيجتنبه، قال عز شأنه: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَـٰفًا كَثِيرًا ﴾(٢٥). فأنزل إلى البشرية قرآناً يتلى إلى يوم القيامة ودعاهم إلى تأمله، وأرشدهم إلى مكمن الخلل لو كان فيه فقال تعالى: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَـٰفًا كَثِيرًا ﴾، وحيث لا يوجد فيه اختلاف فهو من عند الله، وتأمل هذه الدعوة الكريمة والموعظة البليغة في هذه الآية العظيمة حيث يقول ربنا: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ ۖ أَن تَقُومُوا۟ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا۟ ۚ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾(٢٦). قال ابن جرير رحمه الله: "قيل في معناها: أن تقوموا لله بالنصيحة وترك الهوى مثنى، يقول: يقوم الرجل منكم مع آخر فيتصادقان على المناظرة هل علمتم بمحمد صلى الله عليه وسلم جنوناً قط؟ ثم ينفرد كل واحد منكم فيتفكر ويعتبر فرداً، هل كان ذلك به؟ فتعلموا حينئذ أنه نذير لكم"(٢٧). ويقول ابن كثير رحمه الله: "يقول إنما أطلب منكم أن تقوموا قياماً خالصاً لله ليس فيه تعصب ولا عناد، مثنى وفرادى أي مجتمعين ومتفرقين، ثم تتفكروا في هذا الذي جاءكم بالرسالة من الله، أبه جنون أم لا؟ فإنكم إذا فعلتم ذلك بانَ لكم وظهر أنه رسول الله حقاً وصدقاً"(٢٨).

٤- الاستدلال بالدليل الحسي على الأمر المعنوي الغيبي وهذا ظاهر في الاستدلال على أمر الوحدانية والبعث وغيرها كقوله تعالى: ﴿ ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ ۖ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُم مِّن شُرَكَآءَ فِى مَا رَزَقْنَـٰكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَآءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَـٰتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾(٢٩). وقال عزّ شأنه: ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَـٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾(٣٠).

٥- التجرد وعدم اتباع الهوى وأن يكون رائد الإنسان طلب الحق، والتخلي عن الباطل، لا التعصب لأهواء النفوس قال تعالى: ﴿ وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَـٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ بَلْ أَتَيْنَـٰهُم

٢٥- سورة النساء، الآية: ٨٢

٢٦- سورة سبأ، الآية: ٤٦

٢٧- جامع البيان، ٢٢/ ١٠٤-١٠٥.

٢٨- تفسير القرآن العظيم، ٢/ ٢٧١.

٢٩- سورة الروم، الآية: ٢٨.

٣٠- سورة فصلت، الآية: ٣٩

بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ ﴾(٣١). ﴿ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۞ وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ ٱلْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾(٣٢).

٦- التواضع أمام الحقيقة العلمية وعدم الاعتداد بالنفس وبما تعلمه من علم، وما ذاك إلا لأن القرآن أرشدنا إلى أن الإنسان يخرج من بطن أمه جاهلاً لا يعلم شيئاً قال تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾(٣٣). وأخبرنا أن العلم الذي يتلقاه الإنسان بل الإنسانية جمعاء هو قليل بالنسبة إلى ما آتاه الله الإنسان من العلم، قال جل ثناؤه: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾(٣٤). وليقارن الإنسان بين ما تعلمه جيل القرن التاسع عشر الميلادي بما تعلمه الجيل الذي بعده، فإذا علم الإنسان هذه الحقيقة ورسخت في علمه زادته تواضعاً، وأدرك أن ما يجهله أكثر مما يعلمه، بل دفعه ذلك لطلب المزيد من العلم، فيكون العلم سبيلاً للمزيد منه، ولا يصيب الإنسان بالغرور ويظن أنه قد بلغ الغاية فيقف عن الطلب والتحصيل والاكتشاف. وفي هذا نكتة لطيفة وهي أن الإنسان إذا اغتر بالعلم وفرح به رد الحق الذي لا مرية فيه، قال تعالى مخبراً عن بعض الأمم السابقة: ﴿ فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرِحُواْ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾(٣٥).

ثانياً: موافقة العلم الحديث لما جاء به الإسلام:

لئن وقفت الكنيسة موقفاً عدائياً من النظريات العلمية الحديثة(٣٦)، وحكمت بالقتل والسجن على كل عالم يتوصل إلى نظرية أو مكتشف لا تؤيده الكنيسة، فقد حثّ القرآن كما سبق على العلم تعلماً وتعليماً وبين مكانة العلماء عند الله وعند الناس، وتضمن القرآن آيات كثيرة تخبر عن أساس خلق

٣١- سورة المؤمنون، الآية: ٧١.

٣٢- سورة القصص، الآيتان: ٥٠-٥١

٣٣- سورة النحل، الآية: ٧٨.

٣٤- سورة الإسراء، الآية: ٨٥.

٣٥- سورة غافر، الآية: ٨٣.

٣٦- انظر: عبد الله المشوحي، **موقف الإسلام والكنيسة من العلم**، مكتبة المنار، الأردن، ط ١، ١٤٠٢هـ، ص ٩٥ وما بعدها

السموات والأرض، وخلق الإنسان الأول وما تناسل منه من ذرية، وتنبئ عن حوادث ماضية في غابر التاريخ، وتشرح لنا هذه الآيات أيضاً كيف يتكون السحاب، وكيف تتحرك الرياح... إلى غير ذلك مما حواه القرآن من الأخبار العلمية التي لم يتوصل العلم الحديث إليها إلا في هذا العصر المتأخر، فكان السبق للقرآن، وكان التميز له من بين الكتب السماوية السابقة، حيث لم يستطع العلماء المعاصرون حتى من غير المسلمين أن يجدوا فيه خطأً واحداً، وهذا ما اعترف به كثير من الباحثين المنصفين الغربيين، بل هذا الأمر هو الذي قاد الطبيب الفرنسي موريس بوكاي إلى الإسلام حينما قارن بين معطيات العلم الحديث وما تضمنه القرآن والتوراة والإنجيل فتبين له أن القرآن متوافق مع العلم، في حين أثبت أن التوراة والإنجيل الموجودين اليوم يخالفان العلم في المسائل التي تم بحثها، وصنف في ذلك كتابه **القرآن والتوراة والإنجيل والعلم: دراسة الكتب المقدسة في ضوء المعارف العلمية الحديثة** وقد ترجم هذا الكتاب إلى لغات عدة. ويقول بوكاي في خاتمة كتابه بعد أن ذكر نتيجة دراسته للتوراة والإنجيل: "إن التناقضات والأمور غير المعقولة والتعارضات مع معطيات العلم الحديث تتضح تماماً وظيفياً مع كل ما سبق، لكن دهشة المسيحيين تعظم حقا عندما يدركون كل هذا..." ثم يقول عن القرآن: "إن القرآن وقد استأنف التنزيلين اللذين سبقاه لا يخلو فقط من متناقضات الرواية وهي السمة البارزة في مختلف صياغات الأناجيل، بل يظهر أيضاً ـ لكل من يشرع في دراسته بموضوعية وعلى ضوء العلوم ـ طابعَه الخاص وهو التوافق مع المعطيات العلمية الحديثة، بل أكثر من ذلك، وكما أثبتنا يكتشف القارئ فيه مقولات ذات طابع علمي من المستحيل تصور أن إنسانا في عصر محمد صلى الله عليه وسلم قد استطاع أن يؤلفها، وعلى هذا فالمعارف العلمية الحديثة تسمح بفهم بعض الآيات القرآنية التي كانت بلا تفسير صحيح حتى الآن"[٣٧].

ثالثاً: الإرشاد إلى أصول كثير من الفنون والعلوم:

الإسلام ليس منهج عبادة فقط، بل منهج حياة شامل لكل ما يحتاج إليه الإنسان؛ لذا تضمن الدلالة على الأصول التي لا بد منها في الجوانب الرئيسة للحياة، ولن أطيل في هذا وإنما أكتفي بمواضع الشاهد ومنها:

١- الدلالة على أصول العمل في مجال الأنباء والأخبار، فقد أرشد سبحانه وتعالى إلى أصول كثيرة منها التثبت في تلقي الخبر وطلب البينة، قال سبحانه وتعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ

٣٧- موريس بوكاي، القرآن والتوراة والإنجيل والعلم: دراسة الكتب المقدسة في ضوء المعارف العلمية الحديثة، دار المعارف، ص ٢٨٥

أَن تُصِيبُواْ قَوْمًا بِجَهَٰلَةٍ فَتُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَٰدِمِينَ ﴾(٣٨). ومنها ألا يقول ما لم يعلم أو يفتري الكذب ويدعي أنه سمع ورأى، قال تعالى: ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴾(٣٩). قال ابن جرير وقيل معناه: "ولا تقل ما ليس لك به علم، وقيل: لا تقل رأيت ولم تر وسمعت ولم تسمع فإن الله تبارك وتعالى سائلك عن ذلك كله"(٤٠). فالإنسان مسؤول عن سمعه وبصره وفؤاده، ومنها أن القول على الله بلا علم أعظم من الشرك فقال جل ثناؤه: ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّىَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾(٤١). ومنها التحذير من الكذب عموما، ومن الذي يبلغ الآفاق ويعظم أثره على وجه الخصوص، فقد بين النبي صلى الله عليه وسلم عقوبة ممتهن هذا النوع من الكذب فقال صلى الله عليه وسلم: "وأما الرجل الذي أتيت عليه يشرشر شدقه إلى قفاه ومنخره إلى قفاه وعينه إلى قفاه فإنه الرجل يغدو من بيته فيكذب الكذبة تبلغ الآفاق"(٤٢).

٢- الدلالة على أصول الأخذ بأسباب القوة لئلا تفاجأ الأمة فتؤخذ على حين غرة، فقال سبحانه وتعالى: ﴿ وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ ﴾(٤٣). وقال سبحانه وتعالى في هذا الصدد: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ خُذُواْ حِذْرَكُمْ ﴾(٤٤). وهذا الأمر الإلهي هو ما تقوم به اليوم مراكز الاستشعار عن بعد.

٣- الدلالة على أصول القيادة الإدارية، والآيات والأحاديث التي توضح ذلك أكثر من أن تحصر ولكن نذكر منها ما يقوم به الاستشهاد، فقد أكدت الآيات القرآنية المسؤولية العامة و المسؤولية الفردية، وأن الجميع مطالب بالعمل ومحاسب على النتيجة، قال جل ثناؤه في بيان معرض المسؤولية الفردية: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَٰقِيهِ ﴾(٤٥). وقال تعالى: ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا

٣٨- سورة الحجرات، الآية: ٦.

٣٩- سورة الإسراء، الآية: ٣٦.

٤٠- جامع البيان، ١٥/ ٨٥.

٤١- سورة الأعراف، الآية: ٣٣.

٤٢- صحيح البخاري، ح ٦٠٦٦٤٠/ ٢٥٨٥.

٤٣- سورة الأنفال، الآية: ٦٠.

٤٤- سورة النساء، الآية: ٧١.

٤٥- سورة الانشقاق، الآية: ٦.

يَـرَهُۥ ﴿٧﴾ وَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ شَرّٗا يَرَهُۥ﴾(٤٦). وقال عن المسؤولية الجماعية: ﴿وَقُلِ ٱعۡمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمۡ وَرَسُولُهُۥ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۖ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾(٤٧). وأرشد سبحانه إلى أن العامل لابد أن يتصف بصفتين رئيستين هما: القوة والأمانة، قال عز شأنه: ﴿قَالَتۡ إِحۡدَىٰهُمَا يَٰٓأَبَتِ ٱسۡتَـٔۡجِرۡهُۖ إِنَّ خَيۡرَ مَنِ ٱسۡتَـٔۡجَرۡتَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡأَمِينُ﴾(٤٨). هذه الأصول جعلت المسلم تابعاً كان أو متبوعاً يستشعر عظم المسؤولية، فلا يعمل عملاً يلحق الضرر بالآخرين، لأنه يعلم أنه مسؤول عنه غداً، وفي هذا يقول روجيه جارودي المفكر الفرنسي المسلم: الفرق بين حضارة المسلمين وحضارة الغرب سؤالان: الغرب دائما يسأل بـ "كيف" والمسلم يسأل دائما بـ "لماذا" والسؤال الأول مدمر، لأنه يسأل عن الكيفية ولا يسأل عن النتيجة، ولذا أنتج هذا السؤال القنبلة الذرية، لأن السؤال كان: كيف نبيد العدو ونبقي ممتلكاته؟! والسؤال الثاني سؤال إيجابي، لأنه يسأل عن الغاية قبل الشروع في العمل(٤٩).

٤- الدلالة على أصول الأخلاق، فقد أرشد القرآن إلى لبّها وجوهرها فقال تعالى: ﴿وَنَفۡسٖ وَمَا سَوَّىٰهَا ﴿٧﴾ فَأَلۡهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقۡوَىٰهَا ﴿٨﴾ قَدۡ أَفۡلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ وَقَدۡ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾(٥٠). وبين النبي صلى الله عليه وسلم لأصحابه رضي الله عنهم أن خيار الناس هم أصحاب الأخلاق الفاضلة فقال صلى الله عليه وسلم: "إن خيركم أحاسنكم أخلاقاً"(٥١). وأرشد القرآن العظيم إلى أن التعامل بالخلق الحسن ينبغي أن يكون مع الناس كلهم فقال سبحانه وتعالى: ﴿وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسۡنٗا﴾(٥٢). وجعل النبي صلى الله عليه وسلم أن من علامة كمال المرء أن يحب لأخيه ما يحبه لنفسه فقال صلى الله عليه وسلم: "لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه"(٥٣).

٥- الدلالة على أصول الاقتصاد، ذلك أنها لا تقوم حضارة بغير اقتصاد قوي متين، ومن أجل ذلك

٤٦- سورة الزلزلة، الآيتان: ٧-٨.

٤٧- سورة التوبة، آية: ١٠٥.

٤٨- سورة القصص، الآية: ٢٦.

٤٩- من قراءة قديمة في كتبه ولم أهتد إليها الآن

٥٠- سورة الشمس، الآيات: ٧-١٠.

٥١- **صحيح البخاري**، ح ٥٦٨٨، ٥/ ٢٢٤٥، و**صحيح مسلم**، ح ٢٣٢١، ٤/ ١٨١٠.

٥٢- سورة البقرة، الآية: ٧٣.

٥٣- **صحيح البخاري**، ح ١٣، ١/ ١٤، و**صحيح مسلم**، ح ٤٥، ١/ ٦٧.

شرع البيع وحرم الربا فقال تعالى: ﴿وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْ﴾(٥٤). ومنع الرسول صلى الله عليه وسلم الاحتكار والغش لأن ذلك يقوض دعائم الاقتصاد، وحذر الشارع من الداء العظيم الذي لا يقوم معه اقتصاد ألا وهو الإسراف، فقال جل ثناؤه: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٖ وَكُلُواْ وَٱشْرَبُواْ وَلَا تُسْرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾(٥٥).

٦- الدلالة على أصول الصحة العامة، فقد بيّن النبي صلى الله عليه وسلم مشروعية الدواء فقال صلى الله عليه وسلم: "تداووا عباد الله فإن الله لم يضع داءً إلا وضع له معه شفاء إلا الهرم"(٥٦) وأرشد إلى أصل عظيم من أصول الصحة ألا وهو الوقاية من الأمراض قبل وقوعها فقال صلى الله عليه وسلم: "من تصبح كل يوم سبع تمرات عجوة لم يضره في ذلك اليوم سم ولا سحر"(٥٧). وفي رواية مسلم: "من أكل سبع تمرات مما بين لابتيها حين يصبح لم يضره سم حتى يمسي"(٥٨). وفي هذا بعدٌ وقائي في الاحتياط من الأمراض والتوقي منها قبل وقوعها، ومع هذا الاحتياط فقد منع النبي صلى الله عليه وسلم من دخول البلاد الموبوءة فقال: "إذا كان الطاعون بأرض فلا تهبطوا عليه، وإذا كان بأرض وأنتم بها فلا تفروا منه"(٥٩). وحذر من ورود المريض مرضاً معدياً على الصحيح فقال صلى الله عليه وسلم: "لا يوردن ممرض على مصح"(٦٠).

كما أمر بأخذ الاحتياط اللازم في التوقي من أسباب التلف والضرر فقال صلى الله عليه وسلم: "أطفئوا المصابيح إذا رقدتم، وغلقوا الأبواب، وأوكوا الأسقية، وخمروا الطعام والشراب"(٦١). ففيه تنبيه

٥٤- سورة البقرة، الآية: ٢٧٥.

٥٥- سورة الأعراف، الآية: ٣١.

٥٦- محمد بن عبد الواحد بن أحمد المقدسي، **الأحاديث المختارة**، تحقيق: عبد الملك بن دهيش، مكتبة النهضة الحديثة، مكة المكرمة، ط ١، ١٤١٠هـ، ٤/ ١٧٠، ومحمد بن عبد الله الحاكم النيسابوري، **المستدرك على الصحيحين**، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١١هـ، ١/ ٢٠٨، ومحمد بن حبان بن أحمد أبو حاتم البستي، **صحيح بن حيان**، تحقيق: شعيب الأرناؤوط، دار الرسالة، بيروت، ط ٢، ١٤١٤هـ، ١٣/ ٤٢٦.

٥٧- **صحيح البخاري**، ح ٥١٣٠، ٥/ ٢٠٧٥.

٥٨- **صحيح مسلم**، ح ٢٠٤٧، ٣/ ١٦١٨.

٥٩- **الأحاديث المختارة**، ٣/ ١٦١، وقال: إسناده صحيح.

٦٠- **صحيح البخاري**، ح ٥٤٣٧، ٥/ ٢١٧٧، و**صحيح مسلم**، ح ٢٢٢١، ٤/ ١٧٤٣

٦١- **صحيح البخاري**، ح ٥٣٠١، ٥/ ٢١٣٢.

إلى اتباع وسائل السلامة في التعامل مع المصابيح التي تستعمل الشمع أو الغاز وما في حكمها من المدافئ، وفيه التنبيه إلى إغلاق الأبواب، وتغطية الطعام والشراب لئلا تصيبها الهوام والجراثيم والميكروبات.

ولو أردنا أن نقف مع كل علم وفن لنستنبط أصوله لطال بنا المقام، ولكن يكفي أننا ذكرنا أصول العلم والصحة والاقتصاد والإعلام والأخلاق والقوة.

المطلب الثاني: الدين:

وهذا المطلب من أعظم المطالب بل هو أعظم مقوم من مقومات الحضارة بل أعظم مقوم من مقومات الحياة، ولذا لا توجد أمة بغير دين، وهذا يدل على أن الدين أمر فطري، والإسلام جاء لإشباع هذا الأمر الفطري، وكان هو الدين الصحيح كما سترى، ويندرج تحت هذا المطلب مسائل كثيرة وهي:

المسألة الأولى: التعريف:

تعريفه لغة واصطلاحاً، أما تعريفه لغة فهو كما قال الفيروز آبادي: الدِين بالكسر الجزاء، وقد دِنته ديناً، وقد دنت به، والعادة والعبادة والمواظِب من الأمطار، والذل والحساب والقهر والغلبة والاستعلاء والسلطان والملك والحكم والسيرة والتدبير. والديان القهار والقاضي والحاكم والسائس والحاسب والمجازي الذي لا يضيع عملاً بل يجزي بالخير والشر. ومنه قوله تعالى: ﴿أَءِنَّا لَمَدِينُونَ﴾(٦٢) أي لمجزيون محاسبون(٦٣).

وأما تعريفه اصطلاحا فقد: قال الراغب في المفردات: "الدين يقال للطاعة والجزاء، واستعير للشريعة"(٦٤). وقال الفيروزآبادي: "الدين: اسم لجميع ما يتعبد الله عز وجل به"(٦٥). وقد عرف بعض علماء الإسلام الدين بأنه: "وضع إلهي سائق لذوي العقول السيمة باختيارهم إلى ما فيه الصلاح في الحال والفلاح في المآل". وقال دراز أيضاً ويمكن تلخيصه بأن نقول: "وضع إلهي يرشد إلى الحق في

٦٢- سورة الصافات، الآية: ٥٣.

٦٣- الطاهر أحمد الزواوي، **ترتيب القاموس المحيط على طريقة المصباح المنير وأساس البلاغة**، دار عالم الكتب، الرياض، ط٤، ١٤١٧هـ، مادة "دين"، ١/ ١٥٤٦. ومحمد بن أبي بكر بن عبد القادر، **مختار الصحاح**، تحقيق: محمود خاطر، مكتبة لبنان، بيروت، ١٤١٥هـ، ١/ ٩٩.

٦٤- الحسين بن محمد الراغب الأصفهاني، **المفردات في غريب القرآن**، تحقيق: محمد سيد كيلاني، دار المعرفة، بيروت، ص ١٧٥.

٦٥- الفيروز آبادي، **القاموس المحيط**، مادة "دين"، ١/ ١٥٤٦.

الاعتقادات، وإلى الخير في السلوك والمعاملات"(٦٦) وعرفه ابن الكمال فقال: "وضع إلهي يدعو أصحاب العقول إلى قبول ما هو عند الرسول"(٦٧).

هذه بعض تعريفات الدين عند علماء المسلمين، أما تعريفات علماء الغرب فقد تنوعت واختلفت باختلاف مشاربهم ومعتقداتهم وأديانهم وفنونهم، فتجد تعريف علماء الاجتماع يختلف عن تعريف الفلاسفة، ويخالف أيضاً تعريف أصحاب الفكر، وسنستعرض جملة من تعاريفهم له لنرى مدى التباين بينهم. فقد ورد تعريفه في **المعجم الفلسفي** بأنه "مجموعة من معتقدات وعبادات مقدسة يؤمن بها جماعة معينة لسد حاجة الفرد والمجتمع على السواء، أساسه الوجدان، وللعقل فيه مجال"،(٦٨) وعرفه علماء الاجتماع الغربيون بأنه: "نظام اجتماعي يقوم على وجود موجود أو أكثر، أو قوى فوق الطبيعة، ويبين العلاقات بين بني الإنسان وتلك الموجودات وتحت أية ثقافة معينة تتشكر هذه الفكرة لتصبح نمطاً أو أنماطاً اجتماعية أو تنظيماً اجتماعياً، ومثل هذه الأنماط أو النظام تصبح معروفة باسم الدين"(٦٩).

وقد أورد أحمد عجيبة عدداً من تعريفات الدين، وقسمها إلى ثلاث مجموعات تبعا للمنهج المستخدم في التعريف، وأورد ضمن كل مجموعة عدداً من التعاريف نختار واحداً من كل مجموعة، لأن الهدف الاستشهاد والعرض لا المناقشة والرد.

التعريف الأول:.وهو من تعريفات المنهج الباطني: "هو مجموعة واجبات المخلوق نحو الخالق، وواجبات الإنسان نحو الله، وواجباته نحو الجماعة، وواجباته نحو نفسه".

التعريف الثاني: وهو من التعريفات القائمة على الحدس: "رد فعل دفاعي تقاوم به الطبيعة ما في اشتغال العقل مما قد يشل قوى الفرد ويخل تماسك المجتمع".

التعريف الثالث: وهو من تعريفات المنهج المقارن: "توجيه الإنسان سلوكه وفقاً لشعوره بصلة بين روحه وبين روح خفية يعترف لها بالسلطان عليه وعلى سائر العالم ويطيب له أن يشعر باتصاله بها"(٧٠).

٦٦- محمد عبدالله دراز، الدين، دار القلم، الطبعة الثانية، ١٣٩٠هـ، ص ٣٣.

٦٧- انظر: علي بن محمد الجرجاني، **التعريفات**، تحقيق: إبراهيم الأبياري، دار الكتاب العربي، بيروت، ط ١، ١٤٠٥هـ، ١/ ٣٤٤. وانظر: صديق بن حسن القنوجي، **أبجد العلوم الوشي المرقوم في بيان أحوال العلوم**، تحقيق: عبد الجبار زكار، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٧٨م، ٢/ ٣٣٧.

٦٨- جميل صليبا، **المعجم الفلسفي**، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ١٩٨٢م، ص ٨٦.

٦٩- **معجم العلوم الاجتماعية**، تأليف الشعبة القومية للتربية والعلوم والثقافة، اليونسكو، إعداد نخبة من الأساتذة، تصدير ومراجعة: إبراهيم مدكور، نشر الهيئة المصرية للكتاب، ١٩٧٥م، ص ٢٧٠.

٧٠- أحمد علي عجيبة، **دراسات في الأديان الوثنية القديمة**، دار الآفاق العربية، مصر، ط ١، ١٤٢٤هـ، ص ٢١-٢٧.

وحينما تستعرض هذه التعريفات الغربية تجد الاختلاف التام بينها، ومرد ذلك إلى تنوع أديان أصحاب هذه الأقوال، وتعدد مشاربهم الثقافية والحضارية ما بين يونانية ورومانية ونصرانية وفلسفات حديثة حتى تعذّر عليهم الاتفاق على تعريف معتبر، ولذا قال جيمس فريزر: "وأغلب الظن أنه لا يوجد موضوع في العالم اختلفت فيه الآراء مثلما اختلفت حول طبيعة الدين"(٧١).

وقد أورد الأستاذ الدكتور محمد عبدالله دراز في كتابه الدين جملة من التعاريف ونظر في العناصر المكونة لها وخرج منها بالحد التام لماهية الدين فقال: "الدين هو الاعتقاد بوجود ذات ـ أو ذوات غيبية ـ علوية، لها شعور واختيار، ولها تصرف وتدبير للشؤون التي تعني الإنسان، اعتقاد من شأنه أن يبعث على مناجاة تلك الذات السامية في رغبة ورهبة، وفي خضوع وتمجيد" وبعبارة موجزة هو: "الإيمان بذات إلهية جديرة بالطاعة والعبادة" هذا إذا نظرنا إلى الدين من حيث هو حالة نفسية بمعنى التدين، أما إذا نظرنا إليه من حيث هو حقيقة خارجة فنقول: "هو جملة النواميس النظرية التي تحدد صفات تلك الذات الإلهية، وجملة القواعد العلمية التي ترسم طريق عبادتها"(٧٢).

ويرجع رؤوف شلبي الاختلاف حول تعريف الدين إلى ما يلي:

- كثرة المواريث المظلمة فيما يتعلق بالدين الذي توارثوه عن الأمم الوثنية القديمة.
- عدم وجود نصوص في كتبهم الدينية توضح مفهوم الدين.
- عدم وضوح عقائدهم التي ورثوها في أذهانهم.
- عدم كمال دائرة الفروض العقلية التي وضعوها لمناقشة الدين والتدين.
- فساد المقاييس العلمية التي وضعوها لتفسير الدين(٧٣).

ويمكن أن يضاف إليها:

- عدم معرفتهم للدين الصحيح فجاءت تعريفاتهم منطلقة من أديانهم.
- عدم تفريقهم بين الدين الإلهي المنزل والأديان البشرية الوضعية.

وحينما تقارن بين تعريفاتهم وتعريفات العلماء المسلمين تجد أن كلاً قد عرّف ما عرف وعهد، فالعالم المسلم عرف الدين الصحيح المنزل من عند الله فعرّفه كما آمن به وكما عهده، والعالم الغربي الذي

٧١- الغصن الذهبي، ترجم بإشراف أحمد أبو زيد، الهيئة المصرية العامة للتأليف، ١٩٧١م، ص ٢١٧.

٧٢- محمد عبد الله دراز، الدين، ص ٥٢.

٧٣- رؤوف شلبي، يأهل الكتاب، ص ٤٨، نقلا من أحمد علي عجيبة. دراسات في الأديان الوثنية القديمة، ص ٣١.

لم يتفيأ الدين الصحيح وإنما عاش متنقلاً بين فلسفة وضعية ودين محرف جاء تعريفه لِمَا عجز عن فهمه فضلاً عن الإيمان به.

المسألة الثانية: ضوابط الدين الصحيح:

وبعد بيان تعريف الدين لابد أن نتناول الضوابط التي نميز بها بين الدين الصحيح والدين المحرّف أو الدين الذي وضعه البشر، وهذه الضوابط هي:

١- أن يكون الدين منزلاً من عند الله بواسطة ملك من الملائكة على رسول من رسله ليبلغه إلى عباده، وعلى هذا فكل دين يأتي به شخص ويدعو إلى عبادة نفسه فهو دين باطل لا محالة.

٢- أن يدعو إلى إفراد الله سبحانه بالعبادة وتحريم الشرك والوسائل المفضية إليه.

٣- أن يكون متفقاً مع الأصول التي دعا إليها جميع الأنبياء والمرسلين.

٤- أن يتضمن الهداية إلى شرع الله وتعريف الإنسان بالحقائق الكبرى المتعلقة بالله سبحانه وتعالى وبيان صفاته وأسمائه وأفعاله، وبيان ما في هذا الكون مما يتعلق بالغيب الماضي والآتي، وحقائق النفس البشرية وما يصلحها ويزكيها أو يشقيها.

٥- ألا يكون متناقضاً ولا مختلفاً بعضه مع البعض الآخر فلا يأمر بأمر ثم ينقضه بأمر آخر، ولا يحرم شيئاً ثم يبيح مثله من غير علة.

٦- أن يضمن الدين ما يحفظ على الناس دينهم وأنفسهم وأعراضهم وعقولهم وذرياتهم بما يشرع من الأوامر والنواهي والزواجر والأخلاق التي تحفظ هذه الكليات الخمس.

٧- أن يكون الدين رحمة للخلق من ظلم أنفسهم ومن ظلم بعضهم لبعض.

٨- أن يدعو إلى مكارم الأخلاق والأفعال.

٩- أن يحقق السعادة لمن آمن به.

١٠- أن يدل على الحق ويحذر من الباطل، ويرشد إلى الهدى وينفر من الضلال، وأن يدعو الناس إلى صراط مستقيم[٧٤].

المسألة الثالثة: الحاجة إلى الدين:

وبعد البسط لأهم الضوابط التي تميز بين الدين الصحيح والدين الباطل فيحسن أن نتبين هل

٧٤- محمد بن عبد الله بن صالح السحيم، **الإسلام أصوله ومبادئه**، وزارة الشؤون الإسلامية، الرياض، ١٤٢٢هـ ص٧٥-٥٩. وقد بسطت فيه هذه الضوابط.

الإنسان محتاج إلى الدين الصحيح أم أنه ترف فكري يمكن الاستغناء عنه؟!

وللإجابة على هذا السؤال ينبغي أن نستصحب معنا حقيقة الإنسان ومادة خلقه والغاية من خلقه. فالإنسان مخلوق من روح وطين، ومكون من جسد وروح، ويعيش في مجتمع تتنازعه أهواء المجموعة، ومطالب بتكاليف إلهية لابد أن ينال جزاءه عليها إن أحسن أو أساء.

إنك حينما ترى الإنسان في كل زمان ومكان تجده مخلوقاً متديناً فلا يعيش الإنسان بغير دين، وهذا ما يجعل كثيراً من الدراسات تؤكد احتياج الإنسان إلى الدين، فحاجته إليه أعظم من حاجته إلى الطبيب والغذاء والشراب كما يقول ابن القيم رحمه الله[٧٥].

أما أسباب حاجته إلى الدين فكثيرة جداً وقد تنوعت إجابات الباحثين حول تعدادها وذكرها، لكنها مجمعة على هذه الحاجة وتنوعها، يقول معجم (لاروس) للقرن العشرين: "إن الغريزة الدينية مشتركة بين كل الأجناس البشرية، حتى أشدها همجية، وأقربها إلى الحياة الحيوانية... وإن الاهتمام بالمعنى الإلهي وبما فوق الطبيعة هو إحدى النزعات العالمية الخالدة للإنسانية"[٧٦].

ويبين أرنولد توينبي: "إن جوهر الدين ثابت ثبات جوهر الطبيعة البشرية ذاته، فالدين في الحقيقة صفة ذاتية مميزة للطبيعة البشرية"[٧٧].

وينقل الأستاذ دراز لنا إجماع مؤرخي الأديان على هذه الحقيقة فيقول: "إن الحقيقة التي أجمع عليها مؤرخو الأديان هي أنه ليست هناك جماعة إنسانية، بله أمة كبيرة، ظهرت وعاشت ثم مضت دون أن تفكر في مبدأ الإنسان ومصيره، وفي تعليل ظواهر الكون وأحداثه، ودون أن تتخذ لها في هذه المسائل رأياً معيناً، حقاً أو باطلاً، يقيناً أو ظناً، تصور به القوة التي تخضع لها هذه الظواهر في نشأتها، والمآل الذي تصير إليه الكائنات بعد تحولها"[٧٨].

ويقول الدكتور القرضاوي: "إن حاجة الإنسان إلى الدين عامة، وإلى الإسلام خاصة، ليست حاجة ثانوية ولا هامشية، إنها حاجة أساسية أصيلة، تتصل بجوهر الحياة وسر الوجود وأعمق أعماق الإنسان". وفى أقصى ما يمكن من الإيجاز - غير المخل - نبين هنا وجه الحاجة إلى الدين في حياة الإنسان ثم

٧٥- مفتاح دار السعادة، ٢/ ٣٨٣.

٧٦- الدين، ص ٨٢.

٧٧- دراسات في الأديان القديمة، ص ٤٣.

٧٨- الدين، ص ٣٨.

نبين أوجه الحاجة إلى الدين وهي بحسب رأيه كما يلي:

الأول: حاجة العقل إلى معرفة الحقائق الكبرى في الوجود وتتلخص فيما يلي:

١ - حاجة الإنسان إلى عقيدة دينية تنبثق ـ أول ما تنبثق ـ من حاجته إلى معرفة نفسه ومعرفة الوجود الكبير من حوله، أي إلى معرفة الجواب عن الأسئلة التي شغلت بها فلسفات البشر ولم تقل فيها ما يشفي، فالإنسان منذ نشأته تلح عليه أسئلة يحتاج إلى الجواب عنها: من أين؟ وإلى أين؟ ولم؟! ومهما تشغله مطالب العيش عن هذا التساؤل، فإنه لا بد واقف يوماً ليسأل نفسه هذه الأسئلة الخالدة:

أ- يقول الإنسان في نفسه: من أين جئت وجاء هذا الكون العريض من حولي؟ هل وجدت وحدي أم هناك خالق أوجدني؟ ومن هو؟ وما صلتي به؟ وكذلك هذا العالم الكبير بأرضه وسمائه، وحيوانه ونباته وجماده وأفلاكه، هل وجد وحده أم أوجده خالق مدبر؟

ب- ثم ماذا بعد هذه الحياة... وبعد الموت؟ إلى أين المسير بعد هذه الرحلة القصيرة على ظهر هذا الكوكب الأرضي؟ أتكون قصة الحياة مجرد" أرحام تدفع وأرض تبلع" ولا شيء بعد ذلك؟

ج- ثم لماذا وجد الإنسان؟ لماذا أعطي العقل والإرادة وتميز عن سائر الحيوان؟ لماذا سخر له ما في السموات وما في الأرض؟ أهناك غاية من وجوده؟ أله مهمة في حياته؟ أم وجد لمجرد أن يأكل كما تأكل الأنعام ثم ينفق كما تنفق الدواب؟ وإن كانت هناك غاية من وجوده فما هي؟ وكيف يعرفها؟ ما ذكرناه من حاجة الإنسان إلى الدين يتصل بحاجاته العقلية، ولكن هناك حاجة الوجدان والشعور أيضاً، فالإنسان ليس عقلاً فقط، كالأدمغة الإلكترونية، إنما هو عقل ووجدان وروح، هكذا تكونت فطرته ونطقت جبلته. فالإنسان بفطرته لا يقنعه علم ولا ثقافة، ولا يشبع نهمته فن ولا أدب، ولا يملأ فراغ نفسه زينة أو متعة، ويظل قلق النفس، جوعان الروح، ظمآن الفطرة، وشاعراً بالفراغ والنقص، حتى يجد العقيدة في الله، فيطمئن بعد قلق، ويسكن بعد اضطراب، ويأمن بعد خوف، ويحس بأنه وجد نفسه.

٣- وثمة حاجة أخرى إلى الدين: حاجة تقتضيها حياة الإنسان وآماله فيها، وآلامه بها... حاجة الإنسان إلى ركن شديد يأوي إليه، وإلى سند متين يعتمد عليه، إذا ألمت به الشدائد، وحلت بساحته الكوارث، ففقد ما يحب، أو واجه ما يكره، أو خاب ما يرجو، أو وقع به ما يخاف، هنا تأتي العقيدة الدينية، فتمنحه القوة عند الضعف، والأمل في ساعة اليأس، والرجاء في لحظة الخوف، والصبر في البأساء والضراء وحين البأس.

إن العقيدة في الله وفي عدله ورحمته، وفي العوض والجزاء عنده في دار الخلود، تهب الإنسان الصحة النفسية والقوة الروحية، فتشيع في كيانه البهجة، ويغمر روحه التفاؤل، وتتسع في عينه دائرة الوجود، وينظر إلى الحياة بمنظار مشرق، ويهون عليه ما يلقى وما يكابد في حياته القصيرة الفانية، ويجد من العزاء والرجاء والسكينة ما لا يقوم مقامه ولا يغني عنه علم ولا فلسفة ولا مال ولا ولد ولا ملك المشرق والمغرب.

٤- وهناك حاجة أخرى إلى الدين: حاجة اجتماعية، إنها حاجة إلى بواعث وضوابط: بواعث تدفع أفراده إلى عمل الخير، وأداء الواجب وإن لم يوجد من البشر من يراقبهم، أو يكافئهم.. وضوابط تحكم علاقاتهم، وتلزم كل واحد منهم أن يقف عند حده، ولا يعتدي على حق غيره أو يفرط في خير مجتمعه، من أجل شهوات نفسه، أو منفعته المادية العاجلة.ولا يقال: إن القوانين واللوائح كافية لإيجاد هذه الضوابط وتلك البواعث، فإن القوانين لا تخلق باعثاً، ولا تكفي ضابطاً، فإن الإفلات منها ممكن، والاحتيال عليها ميسور، ولهذا كان لا بد من بواعث وضوابط أخلاقية، تعمل من داخل النفس الإنسانية لا من خارجها. لا بد من هذا الباعث الداخلي، ومن هذا: الوازع الذاتي، لا بد من الضمير، أو "الوجدان" أو "القلب" ـ سمه ما شئت ـ فهو القوة التي إذا صلحت صلح عمل الإنسان كله، وإذا فسدت فسد كله[٧٩].

وإضافة إلى ما ذكره القرضاوي من حاجة إلى الدين فقد شاركه في جل ذلك أحمد علي عجيبة وزاد عليها جوانب أخرى منها وقد قسمها إلى حاجة الفرد إلى الدين وحاجة المجتمع إليه أيضاً ومما ذكر:

- أن الفرد محتاج إلى الدين لأنه مجبول على التدين ولا يستطيع الانفكاك عنه ويحتج لذلك بقول الفيلسوف أوجست سباتييه في كتابه **فلسفة الأديان**: "لماذا أنا متدين؟ إني لم أحرك شفتي بهذا السؤال مرة، إلا وأراني مسوقاً للإجابة عليه بهذا الجواب، وهو: أنا متدين، لأني لا أستطيع خلاف ذلك، لأن التدين لازم معنوي من لوازم ذاتي. يقولون لي: ذلك أثر من آثار الوراثة أو التربية أو المزاج، فأقول لهم: قد اعترضت على نفسي كثيراً بهذا الاعتراض نفسه، ولكني وجدته يقهر المسألة ولا يحلها، وأن ضرورة التدين التي أشاهدها في حياتي الشخصية أشاهدها بأكثر قوة في الحياة الاجتماعية البشرية فهي ليست أقل تشبثاً مني بأهداب الدين"[٨٠]. وهذا الذي عبر عنه هذا الفيلسوف بأنه "لازم ذاتي" هو عين ما عبر عنه التنزيل الإلهي بالفطرة، قال تعالى:

٧٩- شبكة سلسبيل الإسلامية، موضوع "الحاجة إلى الدين" مقال للأستاذ يوسف القرضاوي.

٨٠- **دراسات في الأديان الوثنية القديمة**، ص ٦٦.

﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾[٨١].

- أن الإنسان يعيش في صراع بين متطلبات حياته ورغبات البيئة من حوله ولا يمكنه التغلب على هذا الصراع إلا بالعقيدة الدينية التي تنظم وتؤطر هذا الصراع.
- أن الدين الصحيح هو مصدر القيم والأخلاق والمثل العليا والسلوك الأخلاقي فيستمد منه الإنسان قيمه وعقائده ومبادئه القائمة على الإيمان بالله.
- أن من أكبر الأدلة وأقواها على حتمية التدين وضرورته أن هؤلاء الذين يحاولون الانفكاك والتخلص من الدين قد باءت محاولاتهم بالفشل والبوار بل تحولت إلى النقيض من ذلك، يقول مراد هوفمان: "إنه لأمر مزعج، قلة من يهمهم شأن ما أصاب مجتمعاتهم في الغرب... فقدان المعنى، وغياب أي هدف أسمى في الحياة، مع ازدياد الفراغ نقص روحي ينذر بتحويل الوجود الفردي إلى مهمة يائسة عديمة المعنى ـ حقا كما قال برافيس منصور: الإلحاد يجبي ضريبته من كل نفس في الغرب"[٨٢].

ثم استشهد بدراسة عجيبة قام بها تالكوت بارسونز تأكد له فيها حاجة الإنسان إلى الدين بناء على خصائص الوجود الإنساني ومن هذه الخصائص:

١- خصيصة القلق التي يحياها الإنسان خوفاً من الفشل والإحباط عندما يقوم بعمل ما، والدين يمده بالفأل واليقين ويمنحه الطمأنينة على ما يقوم به.

٢- خصيصة العجز تجاه ما يريد وما يواجه من ضغوط فهذا العجز يفسد عليه سعادته ورضاه، والدين الصحيح يصله بأسباب السماء فيتغلب على العجز والقنوط.

٣- خصيصة الندرة وهي أن ما يتاح في هذا الكون من فرص ومعايش وحظوظ لا يتحقق بقدر متماثل لجميع البشر، وهو ما يجعل الإنسان يعيش حالة من الهم والحزن على ما فاته وما أصابه، ويعاني من الخضوع لغيره في طلب حقه ونصيبه، ولا يسليه ويقيم في نفسه الموازين الحقيقية للمكاسب في هذا الكون ويملأ نفسه قناعة ورضا إلا الدين الصحيح[٨٣]. وهو ما جاء به

٨١- سورة الروم، الآية: ٣٠.

٨٢- مراد هوفمان، **الإسلام عام ٢٠٠٠م**، ترجمة عادل المعلم، مكتبة العبيكان، الرياض، ط ١، ١٤٢٤هـ، ص ٤١.

٨٣- **دراسات في الأديان الوثنية القديمة**، ص ٧٠.

الإسلام من الإيمان بالقدر قال جل ثناؤه: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ۝٢٢ لِّكَيْلَا تَأْسَوْاْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُواْ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾(٨٤)

ويضيف ابن القيم رحمه الله جانباً مهماً من جوانب حاجة الإنسان إلى الدين ألا وهو حاجته إلى القوة العلمية النظرية، والقوة العلمية الإرادية، فيقول: "للإنسان قوتان: قوة علمية نظرية وقوة علمية إرادية، وسعادته التامة موقوفة على استكمال قوتيه العلمية والإرادية، واستكمال القوة العلمية إنما يكون بمعرفة فاطره وبارئه، ومعرفة أسمائه وصفاته، معرفة الطريق التي توصل إليه ومعرفة آفاتها، معرفة نفسه ومعرفة عيوبها، فبهذه المعارف الخمسة يحصل كمال قوته العلمية... واستكمال القوة العلمية الإرادية لا تحصل إلا بمراعاة حقوقه سبحانه على العبد والقيام بها إخلاصاً وصدقاً ونصحاً وإحساناً ومتابعة وشهوداً لمنته عليه وتقصيره في أداء حقه... ولا سبيل إلى استكمال هاتين القوتين إلا بمعونته فهو مضطر إلى أن يهديه الصراط المستقيم الذي هدى إليها أولياءه وخاصته"(٨٥). وتابع ابن القيم في التوكيد على أهمية هذا الجانب كل من محمد عبدالله دراز و أحمد عجيبة(٨٦). ومما قال دراز في ذلك: "التدين عنصر ضروري لتكتمل القوة النظرية في الإنسان، فبه وحده يجد العقل ما يشبع نهمته. ثم هو عنصر ضروري لتكتمل فيه قوة الوجدان، فالعواطف النبيلة من الحب والشوق والشكر والتواضع...تجد في الدين مجالاً لا تُدرك غايته، ومنهلاً لا ينفد معينه. وأخيراً هو عنصر ضروري لتكميل قوة الإرادة، يمدها بأعظم البواعث والدوافع، ويدرّعها بأكبر وسائل المقاومة لعوامل اليأس والقنوط"(٨٧). ويقول دراز أيضاً بعد أن استعرض حاجة العقل إلى الدين: "وجملة القول إن العقول السامية تشرئب دائماً من وراء الحقائق الجزئية الحائلة الزائلة، إلى حقيقة كلية أزلية أبدية، حقيقة لا يحويها شيء من العلوم والمعارف، ولكنها تتشوف إليها كل العلوم والمعارف، وتلك هي التي تفردها الأديان الصحيحة بالتقديس... إن هذا التشوف الغريزي إلى الأزلي الأبدي، وهذا الطلب الحثيث للكلي اللانهائي، له دلالتان عميقتان: إحداهما: دلالة على مطلوبه لا كدلالة الأثر على صانعه. وثانيتهما: دلالته على أن في الإنسان عنصرا نبيلا سماويا خلق

٨٤- سورة الحديد، الآيتان: ٢٢-٢٣.

٨٥- ابن قيم الجوزية، الفوائد، تحقيق: أحمد راتب عرموش، دار النفائس، ط ١، ١٣٩٩هـ، ص ١٨-١٩.

٨٦- الدين، ص ٩٨، ودراسات في الأديان الوثنية القديمة، ص ٦٧.

٨٧- الدين، ص ٩٧-٩٨، بتصرف يسير.

للبقاء والخلود، وإن تناساه الإنسان وتلهى عنه حينا، قانعا بالدون من الحياة الجثمانية المتحطمة..."[88].

المسألة الرابعة: مصدر الدين:

تختلف الآراء كثيراً وتتشعب في هذا الموضوع، وهي إن اختلفت تُرْجِع الدين إلى مصدرين هما:

المصدر الأول: الوحي الإلهي من الله سبحانه وتعالى خالق الكون وموجده، وعلى هذا فالدافع للتدين هو الفطرة التي فطر الناس عليها. وهذا الاتجاه هو ما عليه أصحاب الأديان الكبرى الثلاثة: اليهودية والنصرانية والإسلام. ولم يتبق لأتباع اليهودية والنصرانية من دليل على هذا إلا أسفارهم المعتبرة عندهم وما ورثوه عن آبائهم وأجدادهم وهو تراث لم يسلم من النقد العلمي الذي أثبت بما لا يدع مجالاً للشك في تحريف هذا التراث وضياع أصوله، أما المسلمون فأدلتهم على أن مصدر دينهم الوحي الإلهي كثيرة منها:

١- القرآن الكريم الذي تحدى الله به الإنس والجن أن يأتوا بمثله ولو كان بعهضم لبعض ظهيراً، وبقاء هذا التحدي قديماً وحديثاً ومستقبلاً.

٢- ما يقدمه القرآن من عقائد إيمانية راسخة لا تقبل النقض والإبطال، وقوانين اجتماعية وقواعد نفسية وأسس حضارية لا يملك الوصول إليها إلا عالم محيط خبير بأسرار الكون وخفايا النفس وتاريخ الماضي والحاضر والمستقبل.

٣- صدق صاحب الرسالة قبل البعثة وبعدها فلم يجرب عليه كذب قط.

٤- عدم انقطاع الصلة بين فترة تلقي القرآن وبين حفظه وتدوينه وتواتره من غير تحريف أو تبديل بعكس كتب الديانات السابقة[89].

٥- موافقة العلم المعاصر لما تضمنه القرآن من حقائق علمية عن الكون والإنسان والتاريخ[90].

٦- شهادة الذين أسلموا من اليهود والنصارى على أن هذا الدين العظيم "الإسلام" هو الدين الحق وهو الذي بشر به الأنبياء السابقون وهو الموافق لما جاؤوا به أيضاً، وهو الموافق للفطرة والمحقق لمتطلبات النفس البشرية.

المصدر الثاني: فكر الإنسان، والباعث إليه فكره وحاجته وظروفه الطبيعية وبيئته، فيعتنقه كثير

٨٨- المرجع السابق، ص ٩٧-٩٨، بتصرف يسير.

٨٩- عمارة نجيب، الإنسان في ظل الأديان، مكتبة المعارف، الرياض، ١٤٠٠هـ ص ٢٦-٢٧.

٩٠- انظر: مزيد توضيح لهذا الأمر في المطلب المتعلق بالعلم في هذا البحث.

ممن يؤمن بضرورة خضوع كل شيء للمنهج العلمي مدعين أن المنهج العلمي في نظرهم لم يوصلهم إلى شيء وراء الطبيعة، وما لم يصل العلم إلى إثباته فهو في نظرهم عدم وباطل، ولذا راحوا يلتمسون علة ظهور الأديان في كل المجتمعات البشرية في شيء غير الوحي وما وراء الطبيعة، ولم يكن أمامهم إلا الطبيعة نفسها بما فيها الإنسان، ومن هنا تفرعت وتعددت آراؤهم في أصل الإنسان ثم في كيف ظهر الدين(٩١)، ومع كثرة هذه الدراسات وتنوعها ظلت حائرة في هذا الباب تخْبط خبط عشواء، فلم تصل إلى نتيجة ولم تقطع الشك باليقين، ولم تيأس من البحث رغم طول مدته، ولم تُلقِ أداة البحث إعلاناً للعجز.

فالحضارة لا تقوم إلا على دين صحيح يحقق للمتنعمين في ظلالها أهدافهم الفردية والاجتماعية والدينية والسياسية والفكرية العلمية والعملية... ولذا قال الرئيس الأسبق للولايات المتحدة الأمريكية كولج في إحدى خطبه: "إن البلاد في حاجة إلى التدين أكثر مما هي عليه الآن، وإني لا أتصور دواء أنجع وأكثر تأثيراً من الدين في إزالة المساوئ والشرور التي تلون بها شعبنا، فليس في الدنيا نظام تربية أو نظام حكومة غير معرض للزوال، كما أنه ليس هناك جزاء أو عقاب لم يفقد تأثيره فيما بعد إلا ما جاء عن طريق الصلاح والتضحية، وأساس الدين النصيحة، فلا سبيل إلى دوام الحضارة المضيئة ما دمنا محرومين من الإيمان"(٩٢).

والدين الصحيح الذي تقوم به المجتمعات كما أسلفت هو الإسلام؛ ولذا يقول محمد أسد النمساوي الأصل: "يعتبر الإسلامُ من دون سائر الأديان السامية جميعاً روحَ الإنسان ناحية واحدة من شخصية لا ظاهرة مستقلة، ومن ثم فإن نمو الإنسان الروحي، في نظر الإسلام مرتبط ارتباطاً لا انفصام له بجميع نواحي طبيعته الأخرى، إن الدوافع الجسمانية جزء متمم لطبيعته فهي ليست نتيجة أيّ "خطيئة أولى" ـ ذلك المفهوم الغريب عن تعاليم الإسلام ـ بل قوى إيجابية وهبها الله للإنسان، فيجب أن يتقبلها وأن يفيد منها بحكمة على أنها كذلك، ومن هنا فإن مشكلة الإنسان ليست في كيف يكبت مطالب جسده، بل كيف يوفق بينها وبين مطالب روحه بطريقة تجعل الحياة مترعة وصالحة.

إن جذور هذا التوكيد الإيجابي للحياة الإنسانية إنما توجد في النظرة الإسلامية القائلة بأن الإنسان مفطور على الخير، بخلاف الفكرة المسيحية القائلة بأن الإنسان يولد مكسواً "بالخطيئة الأولى" أو العقيدة الهندوسية القائلة بأنه منحط ونجس أصلاً، ويجب أن يتعثر عبر سلسلة طويلة من التناسخ نحو

٩١- المرجع السابق، ص ٢٧.

٩٢- الدين والعلم، ص ١٧٣ نقلا عن دراسات في الأديان، ص ٧٧.

الكمال، بخلاف القرآن الكريم ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ أي في حالة من الطهارة لا يمكن أن تفسد إلا عن طريق السلوك السيئ من بعد ﴿ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ ﴿٥﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾" (٩٣)(٩٤).

المطلب الثالث: الإتقان:

تعريفه: قال ابن منظور: أتقن الشيء أحكمه وإتقانه إحكامه، والإتقان الإحكام للأشياء، وفي التنزيل العزيز ﴿صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ﴾(٩٥). ورجل تَقِنٌ متقن للأشياء حاذق. ورجل تقن وهو الحاضر المنطق والجواب، قال أبو منصور: الأصل في التقن ابن تقن هذا "إشارة إلى رجل ممن مضى"، ثم قيل لكل حاذق بالأشياء تقن، ومنه يقال أتقن فلان عمله إذ أحكمه، وفي ترتيب القاموس: أتقن الأمر أحكمه، والتِقِن بالكسر الطبيعة، والرجل الحاذق(٩٦).

ونسب إلى الأحنف قوله:

وما عليك أن تكون أزرقا   إذا تولى عقد شيء أوثقا(٩٧)

ويحسن الاستشهاد في مثل هذا الموضع بقول علي رضي الله عنه: "الناس أبناء ما يحسنون"، وبقوله: "قيمة كل امرئ ما يحسنه".

ويقول الشاعر

كن ابن من شئت واكتسب أدباً   يغنيك محموده عن النسب(٩٨)

فلما تأدبوا بأدب القرآن تغيرت معايرهم ومقاييسهم فأصبح العربي الذي كان لا يعدل بالنسب والحسب شيئاً يعتبر الإحسان واكتساب الآداب والإتقان هي القيمة الحقيقة للإنسان.

إذاً الإتقان هو الإحكام، سواء كان في الأمور المادية أو في الأشياء المعنوية، ومادام أنه كذلك فلا

٩٣- سورة التين، الآيات: ٤-٦.

٩٤- محمد أسد، **الطريق إلى الإسلام**، ترجمه عفيف البعلبكي، مكتبة العبيكان، الرياض، الطبعة التسعة، ١٤١٨هـ ص ١٥٢

٩٥- سورة النمل، الآية: ٨٨.

٩٦- محمد بن مكرم بن منظور الإفريقي، **لسان العرب**، دار صادر بيروت، ط ١، ١٣/ ٧٣. وترتيب **القاموس المحيط**. مادة تقن ١/ ١٥٢٧.

٩٧- إسماعيل بن محمد العجلوني، **كشف الخفاء ومزيل الإلباس عما اشتهر من الأحاديث على ألسنة الناس**، تحقيق: أحمد القلاس، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١/ ٢٨٦.

٩٨- عبد الروؤف المناوي، **فيض القدير**، المكتبة التجارية، مصر، ط١، ١٣٥٦هـ، ٤ / ١١٠.

غنى عنه في أيّ أمر مادي أو معنوي، ولا تقوم حضارة ولا تزدهر صناعة إلا به، وتولي المؤسسات الصناعية والعلمية هذا الأمر عناية بالغة، ولذا وضعت المواصفات العالمية المتعارف عليها لكل منتج سواء كان منتجاً فكرياً كالمناهج التعليمية، أو كان منتجاً مادياً كسائر المصنوعات، وأصبحت هذه المواصفات من الشهرة بمكان بحيث إن المنتجين والمصنعين يحرصون على أن تتوافق منتجاتهم مع هذه المواصفات، ويسجّلون على منتجاتهم المواصفات التي تم تطبيقها فيه.

والإسلام وهو الرسالة الخاتمة لم يهمل هذا الجانب العلمي المؤثر، فجاءت النصوص الشرعية مقررة هذا الأمر، وداعية إليه، ومخبرة أن الله قد أحسن وأتقن خلق مصنوعاته، وندب البشر إلى إتقان أعمالهم، وبين أنه يحب ذلك من عباده، فقال سبحانه وتعالى مخبراً عن فعله: ﴿صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ﴾[99]. قال ابن عباس رضي الله عنه في معنى الآية: أحكم كل شيء، وقال مجاهد قوله: ﴿ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ﴾ قال: أوثق كل شيء وسوّى. وقريباً من هذا المعنى نقل عن قتادة رحمه الله[100] وقال ابن كثير رحمه الله: "أي أتقن كلما خلق وأودع فيه من الحكمة ما أودع"[101].

وقال ابن القيم رحمه الله في معرض بيان التناسب بين شرعه وخلقه، وأن الله كما خلق خلقه بغاية الإتقان والإحكام، فكذلك شرعه في غاية التناسب والحكمة فقال: "إن من شَرَعَ هذه العقوبات ورتبها على أسبابها جنساً وقدراً فهو عالم الغيب والشهادة، وأحكم الحاكمين وأعلم العالمين، ومن أحاط بكل شيء علماً، وعلم ما كان وما يكون وما لم يكن لو كان كيف كان يكون، وأحاط علمه بوجوه المصالح دقيقها وجليلها وخفيها وظاهرها ما يمكن اطلاع البشر عليه وما لا يمكنهم، وليست هذه التخصيصات والتقديرات خارجة عن وجوه الحِكَمِ والغايات المحمودة، كما أن التخصيصات والتقديرات الواقعة في خلقه كذلك، فهذا في خلقه وذاك في أمره، ومصدرهما جميعاً عن كمال علمه وحكمته ووضعه كل شيء في موضعه الذي لا يليق به سواه ولا يتقاضى إلا إياه، كما وضع قوة البصر والنور للباصر في العين، وقوة السمع في الأذن، وقوة الشم في الأنف، وقوة النطق في اللسان والشفتين، وقوة البطش في اليد، وقوة المشي في الرجل، وخصّ كل حيوان وغيره بما يليق به ويحسن أن يعطاه من أعضائه وهيئاته وصفاته وقدره،

٩٩- سورة النمل، الآية: ٨٨.

١٠٠- جامع البيان، ٢٠/ ٢١.

١٠١- تفسير القرآن العظيم، ٣/ ٣٧٩.

فشمل إتقانه وإحكامه لكل ما شمله خلقه، كما قال تعالى: ﴿صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِيٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ﴾(١٠٢). وإذا كان سبحانه قد أتقن خلقه غاية الإتقان، وأحكمه غاية الإحكام، فلأن يكون أمره في غاية الإتقان والإحكام أولى وأحرى، ومن لم يعرف ذلك مفصّلاً لم يسعه أن ينكره مجملاً"(١٠٣).

وقد ندب النبي صلى الله عليه وسلم إلى إتقان العمل وحثّ عليه، ففي الحديث عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله قال: "إن الله عز وجل يحب إذا عمل أحدكم عملاً أن يتقنه"(١٠٤). ولما خسفت الشمس في اليوم الذي مات فيه إبراهيم بن النبي صلى الله عليه وسلم فقال الناس هذا لموت إبراهيم! فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لا يخسف لموت أحد ولا لحياته" ورأى رسول الله صلى الله عليه وسلم فرجة في القبر بين اللبن فأمر أن تسد فقال: "إن العبد اذا عمل عملاً أحب الله أن يتقنه"(١٠٥). فهذه فرجة في اللبن في داخل القبر. لا تضر الميت ولا تنفعه، ومع ذلك لم يقرهم النبي صلى الله عليه وسلم على تركها دون أن تغلق، وأمر أن تأخذ حقها من الإتقان، ولما سأله الصحابة رضوان الله عليهم هل تنفع الميت أو تضره؟ قال لهم ما قال.

وقال المناوي رحمه الله عند شرحه لهذا الحديث: "إن الله تعالى يحب إذا عمل أحدكم أيها المؤمنون عملاً أن يتقنه أي يحكمه. كما جاء مصرحاً به في رواية العسكري، فعلى الصانع الذي استعمله الله في الصور والآلات والعدد مثلاً أن يعمل بما علمه الله عمل إتقانٍ وإحسانٍ بقصد نفع خلق الله الذي استعمله في ذلك، ولا يعمل على نية أنه إن لم يعمل ضاع، ولا على مقدار الأجرة، بل على حسب إتقان ما تقتضيه الصنعة، كما ذكر أن صانعا عمل عملاً تجاوز فيه ودفعه لصاحبه فلم ينم ليلته كراهة أن يظهر من عمله عملاً غير متقن فشرع في عمل بدلاً منه حتى أتقن ما تعطيه الصنعة، ثم غدا به لصاحبه فأخذ الأول وأعطاه الثاني فشكره، فقال لم أعمل لأجلك بل قضاء لحق الصنعة كراهة أن يظهر من عملي عمل غير

١٠٢- سورة النمل، الآية: ٨٨.

١٠٣- ابن قيم الجوزية، **إعلام الموقعين**، تحقيق: طه عبد الرؤوف سعد، دار الجيل، بيروت، ١٩٧٣م، ٢/ ١٢٠.

١٠٤- أبو القاسم سليمان بن أحمد الطبراني، **المعجم الأوسط**، تحقيق: طارق بن عوض الله، دار الحرمين، القاهرة، ١٤١٥هـ، ١/ ٢٧٥، وأحمد بن علي أبو يعلى الموصلي، مسند أبي يعلى، تحقيق: حسين سليم أسد، دار المأمون، دمشق، ط١، ١٤٠٤هـ، ٧/ ٣٤٩. وأبو بكر أحمد بن الحسين البيهقي، **شعب الإيمان**، تحقيق: محمد السعيد بسيوني، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١٠هـ، ٤/ ٣٣٤، وعلي بن أبي بكر الهيثمي، **مجمع الزوائد**، دار الريان، بيروت، ١٤٠٧هـ، ٤/ ٩٨. وانظر: **كشف الخفاء**، ١/ ٢٨٦.

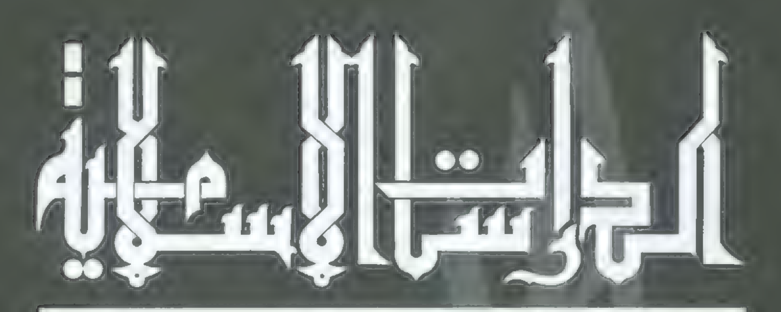
١٠٥- الطبراني، **المعجم الكبير**، تحقيق حمدي عبد المجيد السلفي، مكتبة العلوم والحكم، الموصل ١٤٠٤هـ، ٢٤/ ٣٠٦

متقن، فمتى قصر الصانع في العمل لنقص الأجرة فقد كفر ما علمه الله، وربما سلب الإتقان"[١٠٦].

وبهذا المطلب (الإتقان) نكون قد أتينا على نهاية هذا المبحث المتعلق بالعلم وما يؤول إليه ويعتمد عليه، وسيتجه البحث في المبحث التالي وجهة أخرى تعتبر تتمة له من حيث الجوهر، وإن كانت مغايرة له من حيث التفاصيل.

****

١٠٦- فيض القدير، ٢ / ٢٨٦ - ٢٨٧.



العدد الثاني . المجلد الرابع والأربعون . الصيف (ابريل . يونيو ٢٠٠٩م/ ربيع الثاني . جمادى الثانية ١٤٣٠هـ)



مجمع البحوث الإسلامية
الجامعة الإسلامية العالمية إسلام آباد باكستان

القيم الحضارية في رسالة خير البشرية ﷺ: (٢) القيم الاجتماعية

محمد بن عبدالله بن صالح السحيم

المبحث الثاني: القيم الاجتماعية:

تتناول القيم في هذا المبحث موضوعاً طالما شغل الدارسين والمفكرين وعلماء الاجتماع ألا وهو موضوع الاجتماع، فالقيم التي ينتظمها هذا المبحث تعتبر أسس هذا العلم وقواعده، كما تؤكد على أن هذا الدين الخاتم قد أحاط بكل ما يحتاج إليه الأحياء وتحتاج إليه الحياة، وقد حاولت أن أتناول أبرز القيم المتعلقة في هذا الموضوع وإن كنت لا أستطيع الإحاطة بما يتعلق به، كما ذكرت ذلك في المقدمة، ويدخل تحت هذا المبحث سبعة مطالب هي:

المطلب الأول: الوسطية:

التعريف اللغوي: جاء في ترتيب القاموس: "الوسط: من كل شيء أعدله، وقال ابن منظور: وسط الشيء ما بين طرفيه، ووسطٌ أي خيار، ووسط الشيء وأوسطه أعدله، ورجل وسط ووسيط حسن[١]. وقال في المفردات: وسط الشيء ما له طرفان متساويا القدر[٢].

إذاً الوسط هو العدل والخيار، وهو التوسط بين الطرفين فلا غلو ولا جفاء، ولا إفراط ولا تفريط. وبما أنه بهذه المثابة التي لا تستقيم أمور الأمم والأفراد إلا عليها؛ فقد جاء هذا الدين الحنيف وسطا عدلاً، وأمر بالتوسط وحثّ عليه، وبين أن الهلاك كل الهلاك في الابتعاد عن التوسط سواء كان هذا

١- محمد بن مكرم بن منظور الإفريقي، لسان العرب، دار صادر، بيروت، ط١، مادة وسط، ٧/ ٤٢٧ ـ ٤٣٠. والطاهر أحمد الزواوي، ترتيب القاموس على طريقة المصباح المنير وأساس البلاغة، دار عالم الكتب، الرياض، ط٤، ١٤١٧هـ، المادة نفسها.

٢- الحسين بن محمد الراغب الأصفهاني، المفردات في غريب القرآن، تحقيق محمد سيد كيلاني، دار المعرفة، بيروت، ص ٥٢٢

الابتعاد إلى ناحية التشدد أم إلى ناحية التفريط.

وقد وصف الله سبحانه وتعالى هذه الأمة بأنها وسط فقال عز من قائل: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾[٣]. وقال ابن جرير رحمه الله عند تفسير هذه الآية: "إن الله تعالى ذكره إنما وصفهم بأنهم وسط لتوسطهم في الدين؛ فلا هم أهل غلو فيه غلو النصارى الذين غلوا بالترهب وقيلهم في عيسى ما قالوا فيه، ولا هم أهل تقصير فيه تقصير اليهود الذين بدلوا كتاب الله وقتلوا أنبياءهم وكذبوا على ربهم وكفروا به، ولكنهم أهل توسط واعتدال فيه، فوصفهم الله بذلك، إذ كان أحب الأمور إلى الله أوسطها"[٤].

وهذا الدين الذي أمر بالتوسط جعله الله طريقاً مستقيماً لا عوج فيه يوصل إلى مراد الله من خلقه، ويوصل الخلق إلى أسمى غاياتهم، قال جل ثناؤه: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾[٥]. فهو يوصلهم إلى غاياتهم الدنيوية، ويحقق لهم السلامة الأخروية قال الله تبارك وتعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱعْتَصَمُوا۟ بِهِۦ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِى رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا﴾[٦]. فلهم الرحمة في الدنيا والآخرة كما أن لهم الرحمة والجنة في الآخرة.

فمن الوسطية التي أمر بها هذا الدين ألا يزيد العبد في التعبد على ما شرعه الله له، لئلا يفضي إلى الإحداث في الدين، ولئلا يكلف المرء نفسه فوق طاقته، فقد أخرج البخاري رحمه الله عن حميد بن أبي حميد الطويل أنه سمع أنس بن مالك رضي الله عنه يقول: جاء ثلاثة رهط إلى بيوت أزواج النبي صلى الله عليه وسلم يسألون عن عبادة النبي صلى الله عليه وسلم فلما أخبروا كأنهم تقالوها! فقالوا: وأين نحن من النبي صلى الله عليه وسلم قد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، قال أحدهم: أما أنا فإني أصلي الليل أبداً. وقال آخر: أنا أصوم الدهر ولا أفطر. وقال آخر: أنا أعتزل النساء فلا أتزوج أبداً. فجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: "أنتم الذين قلتم كذا وكذا؟ أما والله إني لأخشاكم لله وأتقاكم له، لكني أصوم

٣- سورة البقرة، الآية: ١٤٣.

٤- محمد بن جرير الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، تحقيق محمد أحمد شاكر، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى، ١٤٢٠ هـ ٢/ ٦.

٥- سورة الأنعام، الآية: ١٥٣.

٦- سورة النساء، الآية: ١٧٥.

وأفطر، وأصلي وأرقد، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني"[٧].

ورأى النبي صلى الله عليه وسلم في المسجد حبلاً ممدوداً بين ساريتين فقال: "ما هذا الحبل"؟ فقيل يا رسول الله! لحمنة بنت جحش تصلي، فإذا أعيت تعلقت به. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لتصل ما أطاقت فإذا أعيت فلتجلس"[٨].

ومن الوسطية في هذا الدين أن يجمع المرء بين الدين والدنيا، جمعاً متوازناً يعطي لكل ذي حق حقه، فلا يطغى جانب التعبد فيضيع العبد نفسه ويعيش عالة على الآخرين، ويضيع حقوق من تجب عليه رعايته كالزوجة والوالد والولد، ولا يطغى جانب الدنيا على الدين فينشأ المرء عبداً للمال لا يعرف ربه ولا يستغفر ذنبه، قال تعالى مرشداً إلى هذا التوازن بين الناحيتين: ﴿وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾[٩]. قال ابن جرير رحمه الله: "يقول تعالى ذكره مخبراً عن قيل قوم قارون له لا تبغ يا قارون على قومك بكثرة مالك والتمس فيما آتاك الله من الأموال خيرات الآخرة بالعمل فيها بطاعة الله في الدنيا". ثم أورد قول الحسن رحمه الله في معنى قوله: ﴿وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا﴾" قال الحسن: ما أحل الله لك منها فإن لك فيه غنى وكفاية"[١٠]. وقال سبحانه وتعالى: ﴿فِى بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ ﴿٣٦﴾ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ ۙ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٣٧﴾ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦ ۗ

٧- محمد بن إسماعيل البخاري، **صحيح البخاري**، دار ابن كثير، بيروت، ١٤٠٧هـ ح ٤٧٧٦، ٥/ ١٩٤٩، ومسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري، **صحيح مسلم**، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث، ح ١٤٠١، ٢/ ١٠٢٠.

٨- **مسند الإمام أحمد بن حنبل**، مؤسسة قرطبة، مصر، ٣/ ٢٥٦، ومحمد بن عبد الله الحاكم النيسابوري، **المستدرك على الصحيحين**، تحقيق مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١١هـ، ٤/ ٦٨، ومحمد بن حبان بن أحمد أبو حاتم البستي، **صحيح ابن حبان**، تحقيق شعيب الأرناؤوط، دار الرسالة، ط ٢، بيروت، ١٤١٤هـ ٦/ ٢٤٠، ومحمد بن يزيد أبو عبد الله القزويني، **سنن ابن ماجه**، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، دار الفكر، بيروت، ١/ ٤٣٦، وأحمد بن الحسين بن علي البيهقي، **سنن البيهقي**، تحقيق محمد عبد القادر عطا، مكتبة دار الباز، مكة المكرمة، ١٤١٤هـ ٣/ ١٩.

٩- سورة القصص، الآية: ٧٧.

١٠- **جامع البيان**، ٢٠/ ١١١-١١٢.

﴿وَٱللَّهُ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٖ﴾[11]. فهؤلاء لا تشغلهم التجارة عن الصلاة ولا تمنعهم من إيتاء الزكاة. وقال قتادة: "كان القوم يتبايعون ويتجرون ولكنهم إذا نابهم حق من حقوق الله لم تلههم تجارة ولا بيع عن ذكر الله حتى يؤدوه إلى الله"[12] وقال ابن كثير رحمه الله: "لا تشغلهم الدنيا وزخرفها وزينتها وملاذ بيعها وربحها عن ذكر ربهم الذي هو خالقهم ورازقهم والذين يعلمون أن الذي عنده هو خير لهم وأنفع مما بأيديهم؛ لأن ما عندهم ينفد وما عند الله باق"[13].

وكما أمر الله بالتوازن فقد أذن بالتمتع بمتاع الحياة الدنيا مما أحله الله من الملابس الجميلة والمآكل الطيبة، بل أمر الله المؤمنين إذا جاؤوا إلى المساجد أن يلبسوا أحسن ثيابهم قال تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ۝٣١ قُلۡ مَنۡ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخۡرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزۡقِۚ قُلۡ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا خَالِصَةٗ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ﴾[14].

وكان النبي صلى الله عليه وسلم يتفقد أصحابه رضي الله عنهم فإذا رأى على بعضهم مخالفة هذا الاعتدال وجّه إلى ما هو خير، فعن أبي الأحوص عن أبيه أنه أتى النبي صلى الله عليه وسلم وهو قشِف الهيئة فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: "هل لك مال؟ قال نعم. قال من أي المال؟ قال من كل المال من الخيل والإبل والرقيق قال فإذا آتاك الله مالاً فلير عليك"[15]. وكان النبي صلى الله عليه وسلم يرشد أصحابه إلى أن الله يحب أن يرى أثر نعمته على عباده، فعن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "كلوا واشربوا وتصدقوا في غير سرف ولا مخيلة؛ إن الله تعالى يحب أن يرى أثر نعمته على عبده"[16]. وعن ابن مسعود رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر، قال رجل: إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسناً، ونعله حسنة.

١١- سورة النور، الآيات: ٣٦-٣٨.

١٢- صحيح البخاري، ٢ / ٧٢٦.

١٣- إسماعيل بن عمر بن كثير أبو الفداء، تفسير القرآن العظيم، دار الفكر، ١٤٠١هـ ٣ / ٢٩٦.

١٤- سورة الأعراف، الآيتان: ٣١-٣٢.

١٥- المستدرك على الصحيحين، ١ / ٧٦، وصحيح ابن حبان، ١١/ ٢٣٤.

١٦- المسند، ٢ / ٣١١، محمد بن عيسى الترمذي، سنن الترمذي، تحقيق أحمد شاكر، دار إحياء التراث، بيروت، ٥/ ١٢٣، وقال الترمذي: حديث حسن، المستدرك، ٤/ ١٥٠، وقال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه.

قال: إن الله جميل يحب الجمال، الكبر بطر الحق وغمط الناس"(١٧).

فالإسلام جاء بالتوسط بين متطلبات الجسد ومقوّمات الروح، فليس ديانة روحانية فقط كالديانات الشرقية الوثنية الزرادشتية أو الكنفوشيسية، وليس سبيلاً للإنتاج المادي والإسراف في طلب نعيم الجسد فقط كالمنهج الرأسمالي؛ بل منهج وسط ـ كما سبق بيانه ـ يراعي كل متطلبات الكائن البشري، ويرضي الرب سبحانه وتعالى عن عباده، ويحقق السعادة في الدنيا والآخرة.

المطلب الثاني: العناية بالمرأة:

للمرأة شأن عظيم في الإسلام سواء كانت أُمّاً أو زوجا أو بنتاً أو أختاً أو من عامة الناس، فالله قد قرن حق الوالدين بحقه فقال عز من قائل: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًاۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾(١٨). وبيّن الحق سبحانه حقوق وواجبات كل من الزوجين تجاه الآخر فقال: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِۚ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾(١٩). وأخبر الكريم الرحمن أن الرجل والمرأة يتساويان في الدنيا والآخرة في ثواب العمل والتمتع بآثاره الطيبة وعاقبته الحميدة قال جل ثناؤه: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةًۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾(٢٠). وأوصى النبي صلى الله عليه وسلم الرجال بالنساء فقال في حجة الوداع في خطبة يوم عرفة في ذلك المقام المشهود والجمع العظيم: "فاتقوا الله في النساء فإنكم أخذتموهن بأمان الله واستحللتم فروجهن بكلمة الله"(٢١). ولم يهمل الشارع توجيه الأزواج إلى ما فيه مراعاة مشاعر النساء والتلطف إليهن فقال صلى الله عليه وسلم: "وإنك مهما أنفقت من نفقة فإنها صدقة حتى اللقمة التي ترفعها إلى في امرأتك"(٢٢).

ولما كانت العرب في جاهليتهم يتضايقون من البنات ـ وهذا خلق كل جاهلية ـ بشّر النبي الكريم صلى الله عليه وسلم الآباء الذين يرزقون البنات بالخير العظيم عند الله سبحانه وتعالى، فقال: "من

١٧- صحيح مسلم، ح ٩١، ١/ ٩٣.

١٨- سورة الإسراء، الآية: ٢٣.

١٩- سورة البقرة، الآية: ٢٢٨.

٢٠- سورة النحل، الآية: ٩٧.

٢١- صحيح مسلم، ح ١٢١٨، ٢/ ٨٨٩.

٢٢- متفق عليه، صحيح البخاري، ح ٢٥٩١، ٣/ ١٠٠٦، وصحيح مسلم، ح ١٦٢٨، ٣/ ١٢٥١.

ابتلي بشيء من البنات فصبر عليهن كن له حجاباً من النار"(٢٣). وللرسول صلى الله عليه وسلم شأن آخر مع المرأة؛ لذا لم تكتف النساء بما تسمع من رسول الله صلى الله عليه وسلم في المسجد وفي خطابه لعامة الناس بل طلبن منه أن يخصص لهن يوماً يأتيهن ويحدثهن ويخصهن بما يناسبهن فوافق صلى الله عليه وسلم ففي الحديث الصحيح أن النساء قالت للنبي صلى الله عليه وسلم: غلبنا عليك الرجال، فاجعل لنا يوماً من نفسك. فوعدهن يوماً لقيهن فيه فوعظهن وأمرهن فكان فيما قال لهن: ما منكن امرأة تقدم ثلاثة من ولدها إلا كان لها حجاباً من النار فقالت امرأة واثنين فقال واثنين"(٢٤).

وفي عنايته صلى الله عليه وسلم ـ وهو الرسول المكلف بأعباء الرسالة وبشؤون الدولة ـ بالمرأة التي كانت تقم المسجد وهي امرأة سوداء من عامة الناس قد لا يُتفطن لمكانها ولا تتبين مكانتها ما يبين حرصه صلى الله عليه وسلم على إعطاء كل ذي حق حقه وعلى إنصافه للمرأة فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: "إن امرأة سوداء كانت تقم المسجد أو شاباً ففقدها رسول الله صلى الله عليه وسلم فسأل عنها أو عنه؟ فقالوا مات. قال: أفلا كنتم آذنتموني، قال فكأنهم صغّروا أمرها أو أمره، فقال: دلوني على قبره، فدلوه فصلى عليها"(٢٥). وفي إخباره صلى الله عليه وسلم عن ثواب ومكانة المرأة التي حبست نفسها على أطفالها في الدنيا ما يدل دلالة عظيمة على تقدير الإسلام للمرأة التي ضحت بنفسها من أجل أولادها الذين هم لبنة من لبنات المجتمع فقال صلى الله عليه وسلم: "أنا وامرأة ـ سفعاء الخدين ـ كهاتين يوم القيامة وأومأ يزيد بالوسطى والسبابة، امرأة أمت من زوجها ذات منصب وجمال حبست نفسها على يتاماها حتى بانوا أو ماتوا"(٢٦). قال ابن حجر رحمه الله: "ويحتمل أن يكون المراد قرب المنزلة حالة دخول الجنة؛ لما أخرجه أبو يعلى من حديث أبي هريرة رفعه 'أنا أول من يفتح باب الجنة فإذا امرأة تبادرني، فأقول من أنت؟ فتقول أنا امرأة تأيمت على أيتام لي!' ورواته لا بأس بهم، وقوله: تبادرني أي لتدخل معي، أو تدخل في أثري، ويحتمل أن يكون المراد مجموع الأمرين: سرعة الدخول وعلوّ المنزلة"(٢٧).

٢٣- سنن الترمذي، ٤/ ٣١٩، وقال أبو عيسى: هذا حديث حسن، وسنن ابن ماجه، ٢/ ١٢١٠.

٢٤- صحيح البخاري، ح ١٠١، ١/ ٥٠، واللفظ له، وصحيح مسلم، ح ٢٦٣٣، ٤/ ٢٠٢٨.

٢٥- المرجع السابق، ح ٩٥٦، ٢/ ٦٥٩، واللفظ له، وصحيح البخاري، ح ٤٤٨، ١/ ١٧٦.

٢٦- مسند الإمام أحمد، ٦/ ٢٩، وسليمان بن الأشعث أبو داود السجستاني، سنن أبي داود، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الفكر، بيروت، ٤/ ٣٣٨.

٢٧- أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، فتح الباري بشرح صحيح البخاري، تحقيق محب الدين الخطيب، دار المعرفة، بيروت، ١٠/ ٤٣٦، وانظر: محمد بن عبد الرحمن المباركفوري، تحفة الأحوذي، دار الكتب العلمية، بيروت، ٦/ ٣٩.

ففي هذا الدين ـ كما يرى كل منصف ـ أن للمرأة مكانة سامية ودرجة عالية لم تبلغها المرأة في أي ديانة سابقة أو حضارة لاحقة، فقد ساوى بينها وبين الرجل في الدنيا والآخرة في ثواب العمل والتمتع بآثاره الطيبة وعاقبته الحميدة، وحثّ على الوصية بها والعناية بها أماً وزوجة. وبيّن أجرها في كل ما يتعلق بشؤونها من احتسابها البقاء من دون زوج رعاية لأطفالها... إلى آخر ما سبقت الإشارة إليه.

المطلب الثالث: الحب:

هذا الخلق العظيم والبلسم الشافي لأمراض القلوب، الذي يؤلف بين النفوس ويجمع بين الأرواح، ويصبغ المجتمع صبغة عاطفية يتسامى فيه أفراده عن الضغائن والأحقاد، ويتعاملون فيما بينهم معاملة الأخ لأخيه، بل معاملة المرء مع نفسه، حتى تكون الحياة سعادة غامرة وجنة عامرة. وهذا الحب في هذا الدين أنواع متعددة، حب يشمل الخالق والمخلوق، حب من الخالق لعباده المؤمنين، وحب من المرء لربه، حب يزرع أسباب الود حتى يشمل الرسول صلى الله عليه وسلم والأب والأم والزوجة والولد وسائر المؤمنين، بل يمتد ذلك فيشعر المرء برباط الحب يربطه بالأرض التي نشأ عليها، والمعالم التي يتردد في جنباتها، وفي نصوص الوحي ما يبين لك طرفاً من هذا المعنى السامي، ومن ذلك:

أولا: محبة الله جل جلاله لعباده:

الله سبحانه وتعالى يحب عباده المؤمنين، يحبهم وهو غني عنهم إنما محبة إنعام وإفضال منه لهم، قال تعالى: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾[٢٨]. بل يرضى عنهم وعن أفعالهم لأنها جاءت موافقة لما أراده منهم قال جل ثناؤه: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾[٢٩].

ثانيا: محبة المرء لربه:

المسلم يحب ربه لأنه أهل للحب، قال سبحانه وتعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ﴾[٣٠]. فهو يحبه لما اتصف به سبحانه من نعوت الجمال والجلال والكمال، ويحبه لما يغذوه به من النعم ويمده به من المنن، فلله على العبد نعم لا تحصى قال الله تعالى: ﴿وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا

٢٨- سورة المائدة، الآية: ٥٤.

٢٩- سورة التوبة، الآية: ١٠٠.

٣٠- سورة البقرة، الآية: ١٦٥.

سَأَلْتُمُوهُۚ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآۗ﴾[31]. وأعظم الخلق محبة لله هم الأنبياء والمرسلون قال ابن القيم: "فأعرفُ خلقه به وأحبهم له يقول: لا أحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك. ولو شهد ـ أي المرء ـ بقلبه صفة واحدة من أوصاف كماله لاستدعت منه المحبة التامة عليها، وهل مع المحبين محبة إلا من آثار صفات كماله، فإنهم لم يروه في هذه الدار، وإنما وصل إليهم العلم بآثار صفاته وآثار صنعه فاستدلوا بما علموه على ما غاب، فلو شاهدوه ورأوا جلاله وجماله وكماله سبحانه وتعالى لكان لهم في حبه شأن آخر، وإنما تفاوتت منازلهم ومراتبهم في محبته على حسب تفاوت مراتبهم في معرفته والعلم به، فأعرفهم بالله أشدهم حباً له، ولهذا كانت رسله أعظم الناس حباً له، والخليلان من بينهم أعظمهم حباً، وأعرف الأمة أشدهم له حباً، إلى أن قال: وهل خلق الله سبحانه وتعالى خلقه إلا لعبادته التي هي غاية محبته والذل له وهل هيئ الإنسان إلا لها كما قيل:

قد هيئوك لأمر لو فطنت له فاربأ بنفسك أن ترعى مع الهمل

وهل في الوجود محبة حق غير باطلة إلا محبته سبحانه، فإن كل محبة متعلقة بغيره فباطلة زائلة ببطلان متعلقها، وأما محبته سبحانه فهو الحق الذي لا يزول ولا يبطل كما لا يزول متعلقها ولا يفنى، فسبحان الله كيف ينكر المحبة الحق التي لا محبة أحق منها ويعترف بوجود المحبة الباطلة المتلاشية، وهل تعلقت المحبة بوجود محدث إلا لكمال في وجوده بالنسبة إلى غيره؟ وهل ذلك الكمال إلا من آثار صنع الله الذي أتقن كل شيء؟ وهل الكمال كله إلا له؟ فكل من أحب شيئاً لكمالٍ ما يدعوه إلى محبته فهو دليل وعبرة على محبة الله، وأنه أولى بكمال الحب من كل شيء، ولكن إذا كانت النفوس صغاراً كانت محبوباتها على قدرها! وأما النفوس الكبار الشريفة فإنها تبذل حبها لأجلّ الأشياء وأشرفها، والمقصود أن العبد اذا اعتبر كل كمال في الوجود وجده من آثار كماله سبحانه فهو دال على كمال مبدعه، كما أن كل علم في الوجود فمن آثار علمه، وكل قدرة فمن آثار قدرته، ونسبة الكمالات الموجودة في العالم العلوي والسفلي إلى كماله كنسبة علوم الخلق وقدرهم وقواهم وحياتهم إلى عمله سبحانه وقدرته وقوته وحياته، فإذا لا نسبة أصلاً بين كمالات العالم وكمال الله سبحانه، فيجب ألاَّ يكون بين محبته ومحبه غيره من الموجودات له بل يكون حب العبد له أعظم من حبه لكل شيء بما لا نسبة بينهما، ولهذا قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِۗ﴾ فالمؤمنون أشد حباً لربهم ومعبودهم من كل محب لكل محبوب، ... فإن الإله هو المحبوب المعبود الذي تألهه القلوب بحبها وتخضع له وتذل له وتخافه وترجوه وتنيب إليه في شدائدها وتدعوه في مهماتها وتتوكل

31- سورة إبراهيم، الآية: 34.

عليه في مصالحها وتلجأ إليه وتطمئن بذكره وتسكن إلى حبه، وليس ذلك إلا الله وحده، ولهذا كانت لا إله إلا الله أصدق الكلام، وكان أهلها أهل الله وحزبه، والمنكرون لها أعداؤه وأهل غضبه ونقمته، فهذه المسألة قطب رحى الدين الذي عليه مداره، وإذا صحت صح بها كل مسألة وحال وذوق، وإذا لم يصححها العبد فالفساد لازم له في علومه وأعماله وأحواله وأقواله، ولا حول ولا قوة إلا بالله"(٣٢).

فأهل الإيمان يحبون الله كأعظم ما يكون الحب، ويعلمون أن محبته غاية كل حي، ويستمدون من محبتهم له ما يعينهم على تحمل المشاق، وبذل المهج والأموال، ومغادرة الأوطان، ويجدون أثر هذه المحبة في قلوبهم سعادة وبرداً ويقيناً حتى إن الفرد منهم ليكون في أضيق عيش وأسوء حال ومع ذلك يشعر بقربه من ربه ومحبته له ما ينسيه ما هو فيه من سوء الحال، ويستعذب أنسه بالله!

هذا ما يجده أهل الإيمان بالله، لكن ألا ترى أن غاية ما تدعو إليه النصرانية أن يتفانى المرء في محبة المسيح ابن مريم عليه السلام؛ لاعتقاده أنه ابن الله، وأنه بذل نفسه فداء للبشرية، وصلب من أجلها، رغم أن كتابه لا يسعفه في إثبات هذه الحقيقة؛ بل لو تفحصه لوجده متناقضاً في إثباتها. وقصارى جهد البوذي أن يتفانى في محبة بوذا، لما وجد في أساطيره من خرافات تدور حوله. ويعظم البراهمة معبودهم (براهما). ويقتفي الزرادشتيون أثر زرادشت اعتقاداً بالقداسة التي تنقلها كتب هذه الديانة حول هذه الشخصية... وهكذا كل أتباع نحلة وديانة يعظمون ويحبون بشراً مثلهم يعبدونه ويمنحونه الحب؛ رجاء أن ينفعهم أو يدفع عنهم الضر، وهو لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضراً، والسؤال المهم في هذا الباب: هل حققت هذه الديانات لأربابها السعادة والأنس وبرد اليقين؟! لكن المسلم يحب الله سبحانه، وهو أهل للحب لذاته سبحانه وتعالى، ولأنه متصف بصفات الكمال والجلال والجمال، كما سبق بيانه. قال ابن القيم رحمه الله: "فإن إيثار المحبوب على غيره موجب المحبة ومقتضاها فإذا استقرت المحبة في القلب استدعت من المحب إيثار محبوبه على غيره، وهذا الإيثار علامة ثبوتها وصحتها ... فيكون عاملاً على مراد محبوبه منه، لا على مراده هو من محبوبه، فهذه هي المحبة الخالصة من درن العلل وشوائب النفس"(٣٣). فإذا محبة الله تحقق للمرء كل مراد النفس، بل هو يستشعر السعادة وهو يحقق مراد ربه منه!

ثالثا: محبة الرسول صلى الله عليه وسلم:

يحب المسلم الرسل والأنبياء جميعاً ولا يفرق بين أحد منهم، لأنهم رسل الله، ولأنهم قدموا

٣٢- محمد بن أبي بكر بن قيم الجوزية، طريق الهجرتين وباب السعادتين، دار الوطن، الرياض، ص ٤٧١-٤٧٣.

٣٣- المرجع السابق ٤٤٤ .

أعظم هداية للبشر إذا أنقذوهم من الكفر إلى الإيمان، ولأنهم كانوا القدوة المثلى فيما يأمرون به وينهون عنه، ولأنهم حازوا من الفضائل والشمائل أرقاها وأزكاها، ولا شك أن أعظمهم في كل ذلك محمد صلى الله عليه وسلم، فهو الذي قدم للبشرية الرسالة الخاتمة، وهو الذي فاق البشر بتحلّيه بكل الكمال الخلقي البشري حتى وصفه ربه فقال: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾[٣٤]. قال ابن جرير رحمه الله: "يقول تعالى ذكره لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم وإنك يا محمد لعلى أدب عظيم، وذلك أدب القرآن الذي أدّبه الله به، وهو الإسلام وشرائعه"[٣٥]. ووصفته أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها لما سئلت عن خلق الرسول صلى الله عليه وسلم فقالت: "كان خلقه القرآن"[٣٦]. فلذا يحبه أهل الإيمان امتثالاً لأمر ربهم بمحبته، ووفاءً لما قدم لهم من هداية وإرشاد، ومحبة للكمال الذي اتصف به؛ إذ النفوس معلقة بمحبة أهل الكمال، فكيف إذا كان الكامل هادياً ورسولاً ومبشراً ونذيراً، قال صلى الله عليه وسلم: "لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده والناس أجمعين"[٣٧]. وهذا الحب هو علامة الإيمان بل هو علامة كماله وتذوق حلاوته قال صلى الله عليه وسلم: "ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله، وأن يكره أن يعود في الكفر كما يكره أن يقذف في النار"[٣٨]. وليست هذه المحبة مجرد ادّعاء حبٍ يردده المسلم صباحاً ومساءً كحال الذين يعظمون أئمتهم، وليست غلوا في محبته ورفعاً له فوق منزلته، فقد كان صلى الله عليه وسلم ينهى أصحابه أن يعظموه أو يمنحوه شيئاً من الصفات والخصائص التي لا تليق إلا بالله، وكان يقول: "لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم فإنما أنا عبده فقولوا عبدالله ورسوله"[٣٩]. وإنما كانت محبتهم له صلى الله عليه وسلم اتباعاً لأمره، وتصديقاً لخبره، واجتناباً لنهيه، وعبادةً لله وفق ما بلغه عن ربه؛ امتثالا لقوله تعالى: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾ قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾[٤٠].

٣٤- سورة القلم، الآية: ٤.

٣٥- جامع البيان، ٢٩/١٨.

٣٦- المرجع السابق ٢٩/١٨، وتفسير القرآن العظيم، ٤/٤٠٣.

٣٧- صحيح مسلم، (ح ٤٤)، ١/٦٧.

٣٨- صحيح البخاري، (ح ١٦)، ١/١٤.

٣٩- المرجع السابق، (ح ٣٢٦١)، ٣/١٢٧١.

٤٠- سورة آل عمران، الآيتان: ٣١-٣٢.

رابعاً: محبة المسلم لعامة المؤمنين:

الحب الذي يغشى قلب المؤمن من جراء محبة الله وتعظيمه، يلزم منه حبه لكل من وافقه في هذا الحب السامي والدين العظيم، فيحب الرسل والأنبياء لما سبق بيانه، ويحب سائر المؤمنين؛ لأنهم يشاركونه في هذا الدين ويعبدون الله وحده لا شريك له، ويحبهم لأن من جملة ما يتعلمه المسلم في هذا الدين الإلهي أنه يجب عليه أن يحب إخوانه كما يحب نفسه، بل يحب لهم كما يحب لنفسه، ويكره لهم ما يكرهه لنفسه، قال صلى الله عليه وسلم: "لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه"(٤١). وأرشدهم النبي صلى الله عليه وسلم إلى ما يزرع الحب في القلوب ويوصل إلى الجنة: "فقال لا تدخلون الجنة حتى تؤمنوا، ولا تؤمنوا حتى تحابوا، أولا أدلكم على شيء إذا فعلتموه تحاببتم؟! أفشوا السلام بينكم"(٤٢). وحذرهم من ضد هذا الحب، وبين لهم الأسباب المفضية إلى ذلك فقال صلى الله عليه وسلم: "لا تباغضوا ولا تحاسدوا ولا تدابروا وكونوا عباد الله إخواناً، ولا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث ليال"(٤٣). كل ذلك من أجل أن يعيش المجتمع متماسكاً متراصاً كأنه جسد واحد كل فرد يفرح لفرح إخوانه، ويأسى لأحزانهم، قال صلى الله عليه وسلم: "مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى"(٤٤).

فالمسلم يحب الخير للبشرية أينما كانت فيرغب بل تكاد نفسه تذهب عليهم حسرات إن لم يؤمنوا بهذا الدين القويم؛ ولذا قال الله عزوجل لنبيه صلى الله عليه وسلم: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ﴾(٤٥). وما ذاك إلا رغبة في نجاتهم، ووقاية لهم من عذاب الله يوم القيامة، وأن يشاركوه في سعادة الدنيا والآخرة، فالمسلم ليس أنانياً يريد الخير لنفسه، كما أنه ليس عنصرياً فيترفع عن أبناء الشعوب والأقوام الأخرى، بل يتمنى أن يعم الخير كل الناس.

خامسا: حب الزوجة:

عبّر القرآن الكريم عن هذه العلاقة بين الزوج والزوجة تعبيراً تعجز اللغات عن الوفاء بمعناه،

٤١- المرجع السابق، (ح ١٣)، ١/ ١٤.

٤٢- صحيح مسلم، (ح ٥٣)، ١/ ٧٤.

٤٣- صحيح البخاري، (ح ٥٧٢٦)، ٥/ ٢٢٥٦.

٤٤- المرجع السابق، (ح٥٦٦٥)، ٥/ ٢٢٣٨، وصحيح مسلم، (ح ٢٥٨٦)، ٤/ ١٩٩٩ واللفظ له.

٤٥- سورة فاطر، الآية: ٨.

فقال تعالى: ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ﴾(٤٦). وجعل الله سبحانه وتعالى خلقه للزوجين بعضهما من جنس بعض من أعظم الأدلة الدالة على وحدانيته فقال جل ثناؤه: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾(٤٧). قال ابن كثير رحمه الله: "فلا ألفة بين روحين أعظم مما بين الزوجين"(٤٨). وأوصى النبي صلى الله عليه وسلم الرجال بالنساء خيراً كما ذكرته عند الحديث عن مكانة المرأة في هذا الدين، ولما سأل عمرو بن العاص رضي الله عنه النبي صلى الله عليه وسلم عن من أحب الناس إليه فقال: عائشة رضي الله عنها(٤٩).

وحينما تقلب سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم تجد أنه حينما غادر مكة مكرها خاطبها بعاطفة جياشة خطاب المحب المكرم المعظم فقال وهو على راحلته بالحزورة: "والله إنك لخير أرض الله وأحب أرض الله إلى الله، ولولا أني أخرجت منك ما خرجت"(٥٠).

وبينما هو مقبل على المدينة ينظر إلى جبل أحد قال لمن معه من أصحابه مخبراً لهم عما في نفسه تجاه جبل أحد، وعما يحمله هذا الجبل الأصم من محبة للرسول الكريم صلى الله عليه وسلم ولصحبه الكرام، ففي الحديث الصحيح عن أبي حميد قال: خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزوة تبوك وساق الحديث وفيه ثم أقبلنا حتى قدمنا وادي القرى فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إني مسرع فمن شاء منكم فليسرع معي ومن شاء فليمكث، فخرجنا حتى أشرفنا على المدينة فقال هذه طابة، وهذا أحد وهو جبل يحبنا ونحبه"(٥١).

لكن ألا تدري لماذا تحب هذه البقاع رسولَ الله صلى الله عليه وسلم ومن سار على منهجه؟ إن الخبر الإلهي قد أبان عن حقيقة هذا الحب ودوافعه، إن هذه المخلوقات خلق من خلق الله، وهي تحب من يحب خالقها وباريها، فإذا الكون كله متحاب في الله متواد فيه، يحب من يحب الله ويبغض من يبغض الله، وفي الخبر التالي مصداق ذلك فعن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إن الله إذا أحب

٤٦- سورة البقرة، الآية: ١٨٧.

٤٧- سورة الروم، الآية: ٢١.

٤٨- تفسير القرآن العظيم، ٢/ ٢٧٥.

٤٩- صحيح البخاري، (ح ٤١٠٠)، ٤/ ١٥٨٤، وصحيح مسلم، (ح ٢٣٨٤)، ٤/ ١٨٥٦.

٥٠- المستدرك، ٣/ ٨، وقال الحاكم: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجه، صحيح ابن حبان، ٩/ ٢٢.

٥١- صحيح البخاري، (ح ١٤١١)، ٢/ ٥٣٩، وصحيح مسلم، (ح ١٣٩٢)، ٢/ ١٠١١، واللفظ له.

عبداً دعا جبريل فقال: إني أحب فلاناً فأحبه، قال: فيحبه جبريل ثم ينادي في السماء فيقول: إن الله يحب فلاناً فأحبوه، فيحبه أهل السماء، قال: ثم يوضع له القبول في الأرض، وإذا أبغض عبداً دعا جبريل فيقول: إني أبغض فلاناً فأبغضه، قال: فيبغضه جبريل ثم ينادي في أهل السماء إن الله يبغض فلانا فأبغضوه، قال: فيبغضونه ثم توضع له البغضاء في الأرض"[٥٢]. والآية التالية مصرحة بأن السماء والأرض لا تبكي على موت المجرمين والفجار، ويفهم منها أنها تبكي على افتقاد الطيبين الأخيار قال تعالى بعد ذكر خبر غرق فرعون وقومه: ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ وَمَا كَانُواْ مُنظَرِينَ﴾[٥٣].

في هذا الدين الإلهي العظيم تكامل الحب وغطى كل ما يتعلق بحياة المخلوق فهو يحب ربه وربه يحبه، ويحب الأنبياء والصالحين ويحبونه، ويحب الأرض والسماء وتبكي عليه الأرض والسماء، ويحبه السهل والوعر... حتى إذا تحول الإنسان غير المسلم إلى الإسلام ورأى عظمة هذا الدين ذلّ لمن شرعه، وتفيأ ظلال هذا الحب فدعا إليه، وها هو مجدي مرجان ـ وكان قساً نصرانياً فأسلم ـ لما وجد الحب الحقيقي في هذا الدين ألف كتابه الجميل محمد نبي الحب وبعد أن أورد فيه بعض الأحاديث المؤكدة على الحب في هذا الدين قال: "إلى هذه الدرجة يرفع محمد قيمة الحب ومكانته، في حياة الناس وبعد مماتهم، ودلل على أهمية الحب في الدنيا والآخرة، إن الحب عند محمد دليل الإيمان، وشرط دخول الجنة، فالإيمان لا يكتمل إلا بالحب، بل من دون الحب لا يوجد الإيمان، إن الإنسان لا يكون مؤمناً إلا إذا كان محباً، فالحب هو لباب الإيمان وأساسه"[٥٤].

المطلب الرابع: الرحمة:

التعريف: الرحمة الرقة والتعطف و المرحمة مثله، وقد رحِمه بالكسر رحمة و مرحمة أيضاً، و تراحم القوم رحم بعضهم بعضاً، والرحم القرابة، والرحم أيضاً بوزن الجسم مثله[٥٥]، قال الراغب: والرحمة رقة تقتضي الإحسان إلى المرحوم، وتستعمل تارة في الرقة المجردة، وتارة في الإحسان المجرد عن الرقة نحو

٥٢- صحيح البخاري، (ح ٣٠٣٧)، ٣/ ١١٧٥، وصحيح مسلم، (ح ٢٦٣٧)، ٤/ ٢٠٣٠، واللفظ له

٥٣- سورة الدخان، الآية: ٢٩.

٥٤- محمد مجدي مرجان، محمد نبي الحب، دار النهضة العربية، مصر، ص ١٠-١١.

٥٥- محمد بن أبي بكر بن عبد القادر، مختار الصحاح، تحقيق: محمود خاطر، مكتبة لبنان، بيروت، ١٤١٥هـ، مادة رحم، ١/ ١٠٠.

رحم الله فلاناً، فالرحمة منطوية على معنيين الرقة والإحسان[٥٦].

والرحمة في هذا الدين أعم من أن يشار إليها في هذه العجالة؛ وما ذاك إلا لأن الرحمن والرحيم من أسمائه سبحانه وتعالى، والرحمة صفة من صفاته، وهي أيضاً في أصل الرسالة وصفة من صفات الرسول صلى الله عليه وسلم بل هو نبي الرحمة كما سيأتي بعد قليل، والله سبحانه وتعالى أرسل رسوله محمدًا صلى الله عليه وسلم رحمة للعالمين قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾[٥٧]. فالله سبحانه وتعالى أرسله رحمة للخلق كلهم مؤمنهم وكافرهم، ولذا قال إمام المفسرين ابن جرير بعد أن أورد الأقوال في هذه الآية: "وأولى القولين في ذلك بالصواب القول الذي روي عن بن عباس وهو أن الله أرسل نبيه محمداً صلى الله عليه وسلم رحمة لجميع العالم مؤمنهم وكافرهم، فأما مؤمنهم فإن الله هداه به وأدخله بالإيمان به وبالعمل بما جاء من عند الله الجنة، وأما كافرهم فإنه دفع به عنه عاجل البلاء الذي كان ينزل بالأمم المكذبة رسلها من قبله"[٥٨].

وبعد بيان أن رسالة الرسول صلى الله عليه وسلم كانت رحمة للعالمين فتعال أخي القارئ لنتفيأ نحن وأنت ظلال هذه الرحمة فنذكر أولاً الأدلة على اتصاف ربنا عز وجل بصفة الرحمة، ثم نذكر رحمة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم وإرشاده أمته إلى أن تتحلى بالرحمة وبيان جوانب ذلك.

فمما يدل على رحمة الله[٥٩] سبحانه وتعالى أن من أسمائه الرحمن والرحيم، ومن صفاته الرحمة قال تعالى: ﴿وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِ﴾[٦٠]. ومن رحمته بخلقه كتب على نفسه الرحمة فقال جل ثناؤه: ﴿قُل لِّمَن مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قُل لِّلَّهِ ۚ كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ۚ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۚ

٥٦- المفردات، ص ١٩١. وانظر: علي بن محمد الجرجاني، **التعريفات**، تحقيق: إبراهيم الأبياري، دار الكتاب العربي، بيروت، ط ١، ١٤٠٥هـ ١/ ٣٦٠.

٥٧- سورة الأنبياء، الآية: ١٠٧.

٥٨- **جامع البيان**، ١٧/ ١٠٦.

٥٩- هذا الأمر لا يحتاج إلى دليل؛ لأنه أظهر من أن يستدل عليه، ولكن الحديث عن القيم في هذه الرسالة يستلزم الحديث عن اشتمالها على الرحمة، ولا يمكن الحديث عن الرحمة في هذه الرسالة بمعزل عن الحديث عن رحمته سبحانه وتعالى، نسأله أن يعمنا برحمته، وأيضاً فإنني أعتزم ترجمة هذا البحث ليطلع عليه غير المسلمين فوجب بيان ذلك لكل ما سبق.

٦٠- سورة الكهف، الآية: ٥٩.

﴿ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾[61]. وأخبر سبحانه أن رحمته وسعت كل شيء قال تعالى: ﴿وَٱكْتُبْ لَنَا فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ ۚ قَالَ عَذَابِىٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنْ أَشَآءُ ۖ وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ ۚ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ﴾[62]. وبين النبي صلى الله عليه وسلم أن من رحمة الله بخلقه أنه كتب على نفسه أن رحمته سبقت غضبه فعن أبي هريرة رضي الله عنه يقول: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "إن الله كتب كتاباً قبل أن يخلق الخلق إن رحمتي سبقت غضبي. فهو مكتوب عنده فوق العرش"[63].

بل أمر الله رسوله صلى الله عليه وسلم أن يبشر المؤمنين الذين يقعون في الذنوب ويرغبون في الإنابة أن يقول لهم سلام عليكم إن الله كتب على نفسه الرحمة وإن من رحمته أن الله يتوب على من تاب قال سبحانه وتعالى: ﴿وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا فَقُلْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ ۖ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ۖ أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[64]. قال ابن جرير رحمه الله بعد أن أورد الأقوال في تفسير هذه الآية: "فتأويل الكلام ـ إذ كان الأمر على ما وصفنا ـ وإذا جاءك يا محمد القوم الذين يصدقون بتنزيلنا وأدلتنا وحججنا فيقرون بذلك قولاً وعملاً، مسترشديك عن ذنوبهم التي سلفت منهم بيني وبينهم، هل لهم منها توبة؟ فلا تؤيسهم منها، وقل لهم سلام عليكم أمنة الله لكم من ذنوبكم أن يعاقبكم عليها بعد توبتكم منها، كتب ربكم على نفسه الرحمة، يقول قضى ربكم الرحمة بخلقه أنه من عمل منكم سوءاً بجهالة ثم تاب من بعده وأصلح فإنه غفور رحيم"[65]. ووضح النبي الكريم صلى الله عليه وسلم أن الله أرحم بعباده من الأم الرؤوم بولدها، فبينما النبي صلى الله عليه وسلم يرى امرأة ترضع ولدها قال لأصحابه: "أترون هذه طارحة ولدها في النار؟! قلنا: لا وهي تقدر على ألا تطرحه! فقال: لله أرحم بعباده من هذه بولدها"[66]. وهذه الرحمة التي تتراحم بها الخليقة إنما هي جزء من تسعة وتسعين جزءًا من رحمته سبحانه وتعالى، ففي الحديث الصحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه قال:

٦١- سورة الأنعام، الآية: ١٢.

٦٢- سورة الأعراف، الآية: ١٥٦.

٦٣- صحيح البخاري، (ح ٧١١٥)، ٦/ ٢٧٤٥.

٦٤- سورة الأنعام، الآية: ٥٤.

٦٥- جامع البيان، ٧/ ٢٠٨.

٦٦- صحيح البخاري، (ح ٥٦٥٣)، ٥/ ٢٢٣٥.

سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "إن الله خلق الرحمة يوم خلقها مئة رحمة، فأمسك عنده تسعاً وتسعين رحمة، وأرسل في خلقه كلهم رحمة واحدة، فلو يعلم الكافر بكل الذي عند الله من الرحمة لم ييأس من الجنة، ولو يعلم المؤمن بكل الذي عند الله من العذاب لم يأمن من النار"(٦٧).

أما رحمة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم فرسالته رحمة كما سبق بيانه، ووصفه ربه بالرحمة فقال جل ثناؤه: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾(٦٨). وهو أرحم الخلق بالخلق فمن ذلك أن كفار قريش حاولوا قتله وبالغوا في أذاه وضيقوا على أصحابه حتى هاجروا فراراً بدينهم ومع ذلك خرج من بينهم لئلا ينزل عليهم العذاب، ونزل إليه ملك الجبال مع جبريل عليهما السلام لعذاب قريش فقال مقالته المشهورة "لعل الله أن يخرج من أصلابهم من يعبد الله"(٦٩). وحينما فتح الله عليه مكة وعاد إليها بلا حرب قال لخصومه في يوم انتصاره عليهم "اذهبوا فأنتم الطلقاء"(٧٠). وسيأتي مزيد بيان لرحمته صلى الله عليه وسلم بخصومه في موضوع "احتمال المخالف".

أما رحمته صلى الله عليه وسلم بالطفل الصغير فكان يقبّل الطفل ويضعه في حجره ففي الحديث الصحيح أن أبا هريرة رضي الله عنه قال: قبّل رسول الله صلى الله عليه وسلم الحسن بن علي وعنده الأقرع بن حابس التميمي جالس، فقال الأقرع: إن لي عشرة من الولد ما قبّلت منهم أحداً! فنظر إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم قال: "من لا يرحم لا يرحم"(٧١). بل ربما أدى الصلاة المكتوبة وهو يؤم الناس والطفلة على عاتقه، فعن أبي قتادة قال: "خرج علينا النبي صلى الله عليه وسلم وأمامة بنت أبي العاص على عاتقه فصلى فإذا ركع وضعها وإذا رفع رفعها"(٧٢). أما رحمته وعنايته بالمرأة فقد أفردت لها موضوعاً خاصاً في هذا البحث.

ومما نقل عن الفاروق عمر رضي الله عنه أنه استعمل رجلاً من بني أسد على عمل فجاء يأخذ

٦٧- المرجع السابق، (ح ٦١٠٤)، ٥/ ٢٣٧٤.

٦٨- سورة التوبة، الآية: ١٢٨.

٦٩- المرجع السابق، (ح ٣٠٥٩)، ٣/ ١١٨٠، و**صحيح مسلم**، (ح ١٧٩٥)، ٣/ ١٤٢٠.

٧٠- انظر: أحمد بن الحسين بن علي البيهقي، السنن الكبرى، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، مكتبة دار الباز، مكة المكرمة. ١٤١٤هـ ٩/ ١١٨.

٧١- **صحيح البخاري**، (ح ٥٦٥١)، ٥/ ٢٢٣٥.

٧٢- المرجع السابق، ٥/ ٢٢٣٥.

عهده قال: فأتي عمر رضي الله عنه ببعض ولده فقبله، قال أتقبل هذا؟! ما قبلت ولداً قط. فقال عمر: فأنت بالناس أقل رحمة، هات عهدنا لا تعمل لي عملاً أبداً(٧٣).

أما رحمته صلى الله عليه وسلم بالطير والحيوان فحدث ولا حرج فعن عبدالرحمن بن عبدالله بن مسعود عن أبيه رضي الله عنه قال: كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في سفر ومررنا بشجرة فيها فرخا حمرة فأخذناهما، قال: فجاءت الحمرة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهي تصيح فقال النبي صلى الله عليه وسلم: "من فجع هذه بفرخيها؟ قال: فقلنا نحن. قال: فردوهما"(٧٤). وكان صلى الله عليه وسلم يأمر أصحابه رضي الله عنهم بالرحمة بالحيوان وينكر عليهم إذا رأى تقصيراً منهم في ذلك. فقد دخل حائطاً لرجل من الأنصار فإذا جمل، فلما رأى النبيَّ صلى الله عليه وسلم حنّ وذرفت عيناه فأتاه النبي صلى الله عليه وسلم فمسح ذفراه فسكت، فقال: من رب هذا الجمل؟ لمن هذا الجمل؟ فجاء فتى من الأنصار فقال: لي يا رسول الله! فقال: "أفلا تتقي الله في هذه البهيمة التي ملكك الله إياها فإنه شكى إليّ أنك تجيعه وتدئبه"(٧٥)، وبين النبي الكريم صلى الله عليه وسلم عظيم الأجر لمن يرحم الحيوان ويحسن إليها، سواء كانت هذه الحيوان مما يملك أم من سائر الحيوانات فعن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "بينما رجل يمشي بطريق اشتد عليه العطش، فوجد بئراً فنزل فيها فشرب، ثم خرج فإذا كلب يلهث يأكل الثرى من العطش، فقال الرجل: لقد بلغ هذا الكلب من العطش مثل الذي كان بلغ مني! فنزل البئر فملأ خفه ماء ثم أمسكه بفيه، حتى رقى فسقى الكلب، فشكر الله له، فغفر له، قالوا يا رسول الله! وإن لنا في هذه البهائم لأجراً؟ فقال: في كل كبد رطبة أجر"(٧٦).

المطلب الخامس: السلام:

التعريف اللغوي: قال ابن منظور: السلام والسلامة البراءة، تسلم منه تبرأ. وقال ابن الأعرابي: السلامة العافية،... وكانت العرب في الجاهلية يحيون بأن يقول أحدهم لصاحبه: أنعم صباحاً وأبيت اللعن، ويقولون: سلام عليكم، فكأنه علامة المسالمة وأنه لا حرب هنالك، ثم جاء الله بالإسلام فقصروا

٧٣- سنن البيهقي الكبرى، ٩ / ٤١.

٧٤- المستدرك على الصحيحين، ٤/ ٢٦٧، قال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه.

٧٥- سنن أبي داود، ٣/ ٢٣، والمستدرك، ٢/ ١٠٩، والأحاديث المختارة، محمد بن عبد الواحد بن أحمد المقدسي، تحقيق: عبد الملك بن دهيش، مكتبة النهضة الحديثة، ط ١، مكة المكرمة، ١٤١٠هـ ٩/ ١٦٠.

٧٦- صحيح مسلم، (ح ٢٢٤٠)، ٤/ ١٧٦١.

على السلام وأمروا بإفشائه، إلى أن قال: وفي قوله تعالى: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَـٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَـٰمًا﴾[77]. معناه تسلماً وبراءة لا خير بيننا وبينكم ولا شر، وقال ابن عرفة قالوا سلاماً أي: قالوا قولا يتسلمون فيه ليس فيه تعد ولا مأثم. قال أبو منصور نتسلم منكم سلاماً ولا نجاهلكم وقيل: قالوا سلاماً أي سداداً من القول وقصداً لا لغو فيه، وقوله قالوا سلاماً قال: أي سلموا سلاماً وقال سلام أي أمري سلام لا أريد غير السلامة[78].

التعريف الشرعي: السلام: هو طلب السلامة من كل مكروه، والسلام من أسمائه تعالى، وحقيقة هذه اللفظة البراءة والخلاص والنجاة من الشر والعيوب[79]. والتسليم مشتق من السلام اسم الله تعالى لسلامته من العيب والنقص، وقيل معناه: أن الله مطلع عليكم فلا تغفلوا، وقيل معناه: اسم السلام عليك؛ إذ كان اسم الله تعالى يذكر على الأعمال توقعاً لاجتماع معاني الخيرات فيه وانتفاء عوارض الفساد عنه، ومنه قيل للجنة دار السلام؛ لأنها دار السلامة من الآفات، وقيل معناه سلمت مني فاجعلني أسلم منك من السلامة بمعنى السلام[80]، وإنما المقصود منه كما قال ابن القيم رحمه الله: الإيذان بالسلامة خبراً ودعاء، فتخبر الذي تسلم عليه أنه في سلام منك، وتدعو له بالسلام وبالسلامة من الآفات[81].

ويقول ابن القيم رحمه الله: "وكل أمة لهم تحية من هذا الجنس أو ما أشبهه ولهم تحية يخصون بها ملوكهم من هيئات خاصة عند دخولهم عليهم كالسجود ونحوه، وألفاظ خاصة تتميز بها تحية الملك من تحية السوقة، وكل ذلك مقصودهم به الحياة ونعيمها ودوامها، فشرع الملك القدوس السلام تبارك وتعالى لأهل الإسلام تحية بينهم "سلام عليكم" وكانت أولى من جميع تحيات الأمم التي منها ما هو محال وكذب نحو قولهم: تعيش ألف سنة، وما هو قاصر المعنى مثل: أنعم صباحاً، ومنها ما لا ينبغي إلا لله مثل: السجود، فكانت التحية بالسلام أولى من ذلك كله؛ لتضمنها السلامة التي لا حياة ولا فلاح إلا بها، فهي الأصل المقدم على كل شيء، ومقصود العبد من الحياة إنما يحصل بشيئين: بسلامته من الشر، وحصول الخير كله، والسلامة من الشر مقدمة على حصول الخير، وهي الأصل، ولهذا إنما يهتم الإنسان بل كل

٧٧- سورة الفرقان، الآية: ٦٣.

٧٨- لسان العرب، مادة سلم، ١٢/ ٢٩٠

٧٩- بدائع الفوائد، ٢/ ١٤٣.

٨٠- لسان العرب، مادة سلم١٢/ ٢٩٠ و النهاية في غريب الأثر، ٢/ ٣٩٢

٨١- بدائع الفوائد، ٢/ ٣٧١.

حيوان بسلامته أولاً ثم غنيمته ثانياً، على أن السلامة المطلقة تتضمن حصول الخير فإنه لو فاته حصل له الهلاك والعطب أو النقص والضعف، ففوات الخير يمنع حصول السلامة المطلقة، فتضمنت السلامة نجاته من كل شر وفوزه بالخير، فانتظمت الأصلين اللذين لا تتم الحياة إلا بهما، مع كونها مشتقة من اسمه السلام ومتضمنة له"(٨٢).

ومن هذا اللفظ المتضمن لهذه المعاني أخذ مسمى الإسلام فإنه من هذه المادة لأنه الاستسلام والانقياد لله تعالى، والتخلص من شوائب الشرك، فسلم لربه وخلص له، كالعبد الذي سلم لمولاه ليس فيه شركاء متشاكسون، ولهذا ضرب سبحانه هذين المثلين للمسلم المخلص الخالص لربه والمشرك به(٨٣). فالسلام مبدأ عظيم أمر به الإسلام وحث عليه وتعددت النصوص التي ترشد إليه وتبين ثماره ومنافعه، ويدرك المرء الحاجة إليه أكثر في هذا العصر الذي يصح أن تسميه عصر الحرب لا عصر السلم، وقد أخبر النبي صلى الله عليه وسلم عن هذه الأزمنة وسماها أيام الهرج أي القتل فقال النبي صلى الله عليه وسلم: "لا تقوم الساعة حتى يقبض العلم وتكثر الزلازل ويتقارب الزمان وتظهر الفتن ويكثر الهرج وهو القتل حتى يكثر فيكم المال فيفيض"(٨٤). فصدقت نبوته وأصبحنا نسمع فيه قعقعة السلاح وقرع طبول الحرب أكثر مما نسمع أخبار الخير والعطاء، ونرى الجثث في شوارع المدن أكثر مما نرى واجهات المساجد والمدارس والمصانع، وتصك الآذان صيحات الأطفال واستغاثات النساء أكثر مما نسمع أناشيد الطفولة وترنيمات الأمهات لأطفالهن، ونشم رائحة البارود أكثر مما نشم رائحة العطور، وهب أنك تسير العاشرة ليلاً في أحد شوارع نيويورك أو كركاس أو غيرها من المدن المسكونة بالرعب والخوف، ثم يقابلك رجل لا تستطيع أن تتنبأ بما سيفعل؛ ثم يقول لك السلام عليكم. فما الأمان الذي يحل عليك؟ وما السكينة التي خالطت قلبك؟! وكم تتلفت إلى مأمن وتبحث عن معاذ تعوذ به وتتحرى أذنك عبارة تمنحك الأمن والسلام في كثير من شوارع عواصم العالم اليوم، وتحدث نفسك أنك إن عدت إلى غرفة الفندق أو البيت ولم يعتد عليك لص يسلب مالك، ولم تفاجأ بلغم أو قنبلة موقوتة تقضي على حياتك وآمالك ـ فقد كسبت هذا اليوم ورأيته مغنما، كم أنت بحاجة إلى السلام في عواصم تحمّلك إدارة الفندق كامل المسؤولية إذا

٨٢- المرجع السابق، ٢/ ٣٧٣.

٨٣- شمس الدين محمد بن أبي بكر المعروف بابن قيم الجوزية، **إعلام الموقعين عن رب العالمين**، تحقيق: طه عبد الرؤوف سعد، دار الجيل، بيروت، ١٩٧٣م، ٢/ ٣٦٢.

٨٤- **صحيح البخاري**، (ح ٩٨٩)، ١/ ٣٥٠ واللفظ له، و**صحيح مسلم**، (ح ٢٦٧٢)، ٤/ ٢٠٥٦.

فتحت باب غرفتك لزائر لا تعرفه ... في مثل هذه الأجواء يكون السلام قيمة عالية الأهمية ومبدأ عظيم القدر في حياة الأمم والشعوب، وسبيلاً إلى قيام الحضارات، بل لا تقوم حضارة بغير أمن وسلام؛ ولذا ذكّر الله أهل مكة حينما بعث إليهم رسوله محمداً صلى الله عليه وسلم بنعمة الأمن والإطعام فقال عز من قائل: ﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيۡشٍ ﴿١﴾ إِۦلَٰفِهِمۡ رِحۡلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيۡفِ ﴿٢﴾ فَلۡيَعۡبُدُواْ رَبَّ هَٰذَا ٱلۡبَيۡتِ ﴿٣﴾ ٱلَّذِيٓ أَطۡعَمَهُم مِّن جُوعٖ وَءَامَنَهُم مِّنۡ خَوۡفِۭ﴾(٨٥).

من أجل ذلك جاء التوكيد على هذا الأمر المهم في هذا الدين الخاتم؛ من وجوه متعددة منها:

الأول: أن السلام من أسمائه تعالى وهو أولى وأحق بهذا الاسم من كل مسمى به لسلامته سبحانه من كل عيب ونقص، فهو السلام الحق بكل اعتبار، والمخلوق سلام بالإضافة، فهو سبحانه سلام في ذاته عن كل عيب ونقص يتخيله وهم، وسلام في صفاته من كل عيب ونقص، وسلام في أفعاله من كل عيب ونقص وشر وظلم وفعل واقع على غير وجه الحكمة؛ بل هو السلام الحق من كل وجه وبكل اعتبار(٨٦).

وقال سبحانه وتعالى مخبراً عن نفسه ومعرفا عباده بأسمائه: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡمَلِكُ ٱلۡقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلۡمُؤۡمِنُ ٱلۡمُهَيۡمِنُ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡجَبَّارُ ٱلۡمُتَكَبِّرُۚ سُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾(٨٧).

وبين أن المسلمين الذين أسلموا وسلّموا وسلم غيرهم منهم أن مآلهم الجنة دار السلام، وهذا تناسب عجيب بين الفعل وهو السلام، وبين الثمرة وهي دار السلام، قال تعالى: ﴿لَهُمۡ دَارُ ٱلسَّلَٰمِ عِندَ رَبِّهِمۡۖ وَهُوَ وَلِيُّهُم بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾(٨٨).

الثاني: أنه بشّر عباده المؤمنين بأن لقاءهم به سبحانه تكون التحية فيه هي السلام، قال جل ثناؤه: ﴿هُوَ ٱلَّذِي يُصَلِّي عَلَيۡكُمۡ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخۡرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۚ وَكَانَ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَحِيمٗا ﴿٤٣﴾ تَحِيَّتُهُمۡ يَوۡمَ يَلۡقَوۡنَهُۥ سَلَٰمٞۚ وَأَعَدَّ لَهُمۡ أَجۡرٗا كَرِيمٗا﴾(٨٩). قال ابن كثير رحمه الله: "الظاهر أن المراد ـ والله أعلم ـ تحيتهم أي من الله تعالى يوم يلقونه سلام أي يوم يسلم عليهم كما قال الله عز وجل: ﴿سَلَٰمٞ قَوۡلٗا مِّن رَّبّٖ

٨٥- سورة قريش، الآيات: ١-٤.

٨٦- إعلام الموقعين، ٢/ ٣٦٣.

٨٧- سورة الحشر، الآية: ٢٣.

٨٨- سورة الأنعام، الآية: ١٢٧.

٨٩- سورة الأحزاب، الآيتان: ٤٣-٤٤.

رَّحِيمٍ﴾[90][91] ففي هذا اليوم المخوف الذي يجمع الله فيه الأولين والآخرين ويعلم كل إنسان أنه مؤاخذ بذنبه؛ يتنزل السلام والتسليم على أهل الإيمان من الرب الرحيم!! فيا لها من بشرى ما أعظمها؟! ويا له من أمن ما أبرده على القلب.

الثالث: أن السلام من أول مقاصد الرسالة الخاتمة فعن عبدالله بن سلام ـ وهو من أحبار اليهود ـ قال لما قدم النبي صلى الله عليه وسلم انجفل الناس عليه فكنت فيمن انجفل فلما تبينت وجهه عرفت أن وجهه ليس بوجه كذاب فكان أول شيء سمعته يقول: "أفشوا السلام، وأطعموا الطعام، وصلوا الأرحام، وصلوا والناس نيام؛ تدخلوا الجنة بسلام"[92].

الرابع: أن السلام يعتبر في هذا الدين من خير شعبه وأهم مبادئه فعن عبدالله بن عمرو رضي الله عنهما أن رجلاً سأل النبي صلى الله عليه وسلم أي الإسلام خير؟ قال: "تطعم الطعام وتقرأ السلام على من عرفت ومن لم تعرف"[93]. فانظر كيف قرن النبي صلى الله عليه وسلم بين عمادي قيام البلدان والأبدان الإطعام والسلام، كما قرن بينهما الله في سورة قريش، وبوب البخاري رحمه الله في **صحيحه** فقال: باب أيّ الإسلام أفضل، وأورد فيه حديث أبي موسى رضي الله عنه قال: قالوا يا رسول الله! أي الإسلام أفضل؟ قال: "من سلم المسلمون من لسانه ويده"[94]. وقال عمار رضي الله عنه: "ثلاث من جمعهن فقد جمع الإيمان: الإنصاف من نفسك، وبذل السلام للعالم، والإنفاق من الإقتار"[95]. وهذا من عجيب فقه عمار رضي الله عنه حيث ذكر هذه المقومات الثلاث التي من جمعهن فقد جمع الإيمان؛ فإذا أنصف من نفسه فقد أعطى لكل ذي حق حقه، وإذا بذل السلام للعالم فقد سلم منه الخلق وبذل لهم السلام، ثم نوّه إلى أمر إيجابي يحتاج إليه الخلق من كل ذي سعة وبذل ألا وهو الإنفاق من الإقتار، فأعظِم بهذا الدين، وأعظِم بحملته الأوائل كيف فقهوه وطبقوه!

٩٠- سورة يس، الآية: ٥٨.

٩١- **تفسير القرآن العظيم**، ٣/ ٤٩٧.

٩٢- محمد بن عيسى الترمذي، **سنن الترمذي**، تحقيق: أحمد شاكر، دار إحياء التراث، بيروت، ٤/ ٦٥٢، محمد بن يزيد أبو عبد الله القزويني، سنن ابن ماجه، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار الفكر، بيروت، ٢/ ١٠٨٣، البيهقي، **السنن الكبرى**، ٢/ ٥٠٢، **المختارة**، ٩/ ٤٣١، **المستدرك على الصحيحين**، ٣/ ١٤.

٩٣- **صحيح البخاري**، (ح ١٢)، ١/ ١٣، **وصحيح مسلم**، (ح ٣٩)، ١/ ٦٥.

٩٤- **صحيح البخاري**، (ح ١١)، ١/ ١٣، **وصحيح مسلم**، (ح ٤١)، ١/ ٦٥.

٩٥- **صحيح البخاري**، ١/ ١٩.

الخامس: أنه علامة على ائتلاف المجتمع ومحبة بعضهم لبعض، فالإسلام لم يكن ديناً غرضه أن يعبد الإنسان ربه في المسجد وينساه في سائر مرافق الحياة، كالمسيحية التي تعلم أتباعها أن يتعبدوا في الكنيسة يوم الأحد ليعيثوا في الأرض فساداً بقية الأسبوع. يقول عبد الأحد داود وكان قسا نصرانيا ثم أسلم مخبرا عما كان يجده في ديانته النصرانية: "فإنه عندما يخرج من الكنيسة حيث شارك في تناول العشاء الرباني الذي يسمونه القربان المقدس يصبح متعصبا وانعزاليا، لدرجة أنه يفضل لقاء كلب على لقاء مسلم أو يهودي؛ لأن هذين لا يؤمنان بالثالوث وبالعشاء الرباني، إنني أعرف ذلك وكنت أحمل نفس العواطف عندما كنت قسا كاثوليكيا"(٩٦).

لكن الإسلام دين يهدف إلى تحقيق العبودية التامة لرب العالمين في كل زمان ومكان، فعن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لا تدخلون الجنة حتى تؤمنوا، ولا تؤمنوا حتى تحابوا، أولا أدلكم على شيء إذا فعلتموه تحاببتم؟ أفشوا السلام بينكم"(٩٧). قال ابن العربي: "فيه إن من فوائد إفشاء السلام حصول المحبة بين المتسالمين؛ وكان ذلك لما فيه من ائتلاف الكلمة لتعم المصلحة بوقوع المعاونة على إقامة شرائع الدين، وهي كلمة إذا سمعت أخلصت القلب الواعي لها عن النفور إلى الإقبال على قائلها"(٩٨).

وقال الإمام النووي رحمه الله: "وفي إفشائه تمكن ألفة المسلمين بعضهم لبعض وإظهار شعارهم المميز لهم من غيرهم من أهل الملل، مع ما فيه من رياضة النفس، ولزوم التواضع، وإعظام حرمات المسلمين، وفى هذه الأحاديث جمل من العلم ففيها: الحثّ على إطعام الطعام والجود والاعتناء بنفع المسلمين، والكف عما يؤذيهم بقول أو فعل مباشرة أو سبب، والإمساك عن احتقارهم، وفيها الحثّ على تآلف قلوب المسلمين، واجتماع كلمتهم وتوادهم واستجلاب ما يحصل ذلك قال القاضي رحمه الله: والألفة إحدى فرائض الدين وأركان الشريعة ونظام شمل الإسلام، قال: وفيه بذل السلام لمن عرفت ولمن لم تعرف، وإخلاص العمل فيه لله تعالى لا مصانعة ولا ملقاً، وفيه مع ذلك استعمال خلق التواضع، إلى أن قال: وفيها أي ألفاظ هذه الأحاديث لطيفة أخرى وهي أنها تتضمن رفع التقاطع والتهاجر والشحناء وفساد ذات البين التي هي الحالقة، وأن سلامه لله لا يتبع فيه هواه، ولا يخص أصحابه وأحبابه به"(٩٩).

٩٦- عبد الأحد داود، محمد في الكتاب المقدس، ترجمة فهمي شما، رئاسة المحاكم الشرعية، قطر، ط ١، ١٤٠٥هـ ص١٥٢.

٩٧- صحيح مسلم، (ح ٥٤)، ١/ ٧٤.

٩٨- فتح الباري، ١١/ ١٨، ١٩، بتصرف يسير.

٩٩- شرح النووي على صحيح مسلم، دار إحياء التراث، بيروت، ط٢، ١٣٩٢هـ ٢/ ١٠، ١١، ٣٦.

السادس: افتقاده قد يوجب الريبة، لما كان السلام عنواناً للسلامة وإعلاناً للمسالمة وطلباً للبراءة، كان افتقاده قد يوجب الريبة؛ ولذا حرم الإسلام التقاطع والتهاجر، وأنه لا يحل منه إلا الثلاث التي أشار إليها النبي صلى الله عليه وسلم، وأرشد إلى ترك ذلك، وبين أن خيرهما الذي يبدأ بالسلام؛ إذ أنه عنوان للمسالمة وترك القطعية، قال النبي صلى الله عليه وسلم: "لا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث يلتقيان **فيصد هذا ويصد هذا وخيرهما الذي يبدأ بالسلام**"(١٠٠).

ولذا لما جاءت الملائكة إلى إبراهيم عليه السلام وقالوا له سلاماً، وقدم لهم الطعام ولم يطعموه أوجس منهم خيفة كما أخبر الله عنهم فقال جل ثناؤه: ﴿ وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُواْ سَلَٰمًا قَالَ سَلَٰمٌ فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُواْ لَا تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ﴾(١٠١). قال ابن جرير رحمه الله عند تفسير هذه الآية: "لأن التسليم لا يكاد يكون إلا بين أهل السلم دون الأعداء، فإذا ذكر تسليم من قوم على قوم ورد الآخرين عليهم دل ذلك على مسالمة بعضهم بعضاً. فلما رأى أيديهم لا تصل إليه نكرهم وأوجس منهم خيفة قالوا لا تخف إنا أرسلنا إلى قوم لوط، يقول تعالى ذكره فلما رأى إبراهيم أيديهم لا تصل إلى العجل الذي أتاهم به، والطعام الذي قدم إليهم؛ نكرهم وذلك أنه لما قدم طعامه عليه السلام إليهم فيما ذكر كفوا عن أكله، لأنهم لم يكونوا ممن يأكله، وكان إمساكهم عن أكله عند إبراهيم وهم ضيفانه مستنكراً، ولم تكن بينهم معرفة، وراعه أمرهم وأوجس في نفسه منهم خيفة"(١٠٢). ففهم إبراهيم عليه السلام أن السلام عنوان مسالمة، فلما قدم الطعام **ولم يأكلوا أوجس منهم خيفة، فعلى هذا يكون ترك السلام موجباً للريبة.**

المطلب السادس: الأخلاق:

تعريفه: الأخلاق جمع خُلق، وقال الجوهري: والخلق: السجية. يقال: خالص المؤمن، وخالق الفاجر. وفلان يتخلق بغير خلقه، أي يتكلفه. قال الشاعر:

إن التخلق يأتي دونه الخلق(١٠٣)

وقال الزبيدي في تاجه: الخُلُق بالضَّمِّ وبضَمَّتَيْنِ: السجية وهو ما خلق عليه من الطبع ومنه

١٠٠- متفق عليه، صحيح البخاري، (ح ٥٨٨٣)، ٥/ ٢٣٠٢، وصحيح مسلم، (ح ٢٥٦٠)، ٤/ ١٩٨٤.

١٠١- سورة هود، الأيتان: ٦٩-٧٠.

١٠٢- جامع البيان، ١٢/ ٦٩-٧١.

١٠٣- الصحاح في اللغة، مادة خلق.

حديث عائشة رضي الله عنها: "كان خلقه القرآن": أي كان متمسكاً به وبآدابه وأوامره ونواهيه وما يشتمل عليه من المكارم والمحاسن والألطاف. وقال ابن الأعرابي: الخلق: المروءة، والخلق: الدين وفي التنزيل: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾[١٠٤]، والجمع أخلاق لا يكسر على غير ذلك وفي الحديث: "ليس شيء في الميزان أثقل من حسن الخلق" وحقيقته أنه لصورة الإنسان الباطنة وهي نفسه وأوصافها ومعانيها المختصة بها بمنزلة الخلق لصورته الظاهرة وأوصافها ومعانيها، ولهما أوصاف حسنة وقبيحة والثواب والعقاب يتعلقان بأوصاف الصورة الباطنة. أكثر مما يتعلقان بأوصاف الصورة الظاهرة؛ ولهذا تكررت الأحاديث في مدح حسن الخلق في غير موضع، ثم أورد أحاديث ثم قال: وكذلك جاءت في ذم سوء الخلق أيضاً أحاديث كثيرة[١٠٥].

فالأخلاق إذاً هي الصورة الإنسانية الباطنة التي تعطي للصورة الظاهرة حسنها أو قبحها، وبما أن الأخلاق بهذه المكانة فقد عني بها الشرع الحنيف عناية فائقة، فبين أصول الأخلاق المحمودة، وبين أصول الأخلاق المذمومة، وبين عواقب التخلق بكل واحد منها، وبما أن النصوص التي تناولت هذا الباب كثيرة جداً فلن أتناول النصوص التي حضت على نوع محمود من الخلق، أو حذرت من نوع مذموم منها، وسأكتفي بذكر النصوص الدالة على حسن الخلق أو النصوص التي تحذر من سيئ الأخلاق.

وقبل الخوض في ذلك أقول:إن الأخلاق في الإسلام مبدأ وعقيدة لا تتغير ولا تتبدل سواء كان المقابل صديقاً أو عدواً، قريباً أم بعيداً، سواء كان المسلم منتصراً أو مهزوماً، وكثير من الأمم تكون أخلاقها تبعاً لمصالحها فإن كانت للفرد أو الدولة مصلحة في الصدق صدقوا، وإن كان الكذب سيحقق مكسباً ومغنماً كان هو المطية، وبئس المطية الكذب، ومن نظر في كثير من السياسات العالمية اليوم وجد أنها سياسات غير أخلاقية وإنما هي سياسات مصالح، لا سياسات مبادئ؛ بينما الرسالة الخاتمة كان الجانب الخلقي من أبرز مقوماتها، ولذا قال النبي صلى الله عليه وسلم: "إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق"[١٠٦]. ولم يكن هذا المبدأ شعارا فقط بل دعا إليه صلى الله عليه وسلم، فهذا أبو ذر رضي الله عنه قبل إسلامه لما سمع بمبعث النبي صلى الله عليه وسلم قال لأخيه: اركب إلى هذا الوادي فاسمع من قوله! فرجع فقال:

١٠٤- سورة القلم، الآية: ٤.

١٠٥- الزَّبيدي، تاج العروس من جواهر القاموس، مادة "خلق".

١٠٦- المسند، ٢/ ٣٨١، مصنف ابن أبي شيبة، مكتبة الرشد، الرياض، ط ١، ٦/ ٣٢٤، سنن البيهقي، ١٠/ ١٩١.

"رأيته يأمر بمكارم الأخلاق"(١٠٧). ومن هذه المكارم التي أمر بها قوله تعالى: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾(١٠٨). وقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِى ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾(١٠٩). وتأمل هذا البعد الاجتماعي والأخلاقي في قوله صلى الله عليه وسلم: "لا تحاسدوا ولا تناجشوا ولا تباغضوا ولا تدابروا ولا يبع بعضكم على بيع بعض، وكونوا عباد الله إخواناً، المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يخذله ولا يحقره، التقوى ها هنا، ويشير إلى صدره ثلاث مرات، بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم، كل المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه"(١١٠).

وهذا الخلق الذي دعا إليه صلى الله عليه وسلم كان هو أول من امتثله وتخلق به؛ ولذا وصفته زوجته رضي الله عنها لما سألها سعد بن هشام بن عامر عن خلق الرسول صلى الله عليه وسلم حيث قال: أتيت عائشة فقلت: يا أم المؤمنين! أخبريني بخلق رسول الله صلى الله عليه وسلم. فقالت: "كان خلقه القرآن، أما تقرأ القرآن قول الله عز وجل: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾"(١١١). فكان يأتمر بأمر القرآن، وينتهي عن مناهيه، وينزجر عن زواجره، ويصدق بأخباره، ويخضع ويُخضع من تحت يده لأحكامه، فكانت حياته صلى الله عليه وسلم تطبيقاً حياً لهذه المبادئ التي نادى بها ودعا إليها، وعن عبدالله بن عمرو رضي الله عنهما قال: "لم يكن النبي صلى الله عليه وسلم فاحشاً ولا متفحشاً، وكان يقول: إن من خياركم أحسنكم أخلاقاً"(١١٢).

ولم يكن الخلق الذي تخلق به ودعا إليه خاصاً بالمقربين منه أو بأتباعه على دينه أو بأبناء جنسه العرب؛ وإنما كان عاماً لكل الناس البر والفاجر، والمؤمن والكافر القريب والبعيد، ولذا لما أرسل معاذاً رضي الله عنه إلى اليمن أوصاه بهذه الوصية الجامعة فقال: "اتق الله حيثما كنت، وأتبع السيئة الحسنة تمحها،

١٠٧- **صحيح البخاري**، ٥/ ٢٢٤٤.

١٠٨- سورة الأعراف، الآيتان: ١٩٩-٢٠٠.

١٠٩- سورة آل عمران، الآية: ١٣٤.

١١٠- **صحيح مسلم**، (ح ٢٥٦٤)، ٤/١٩٨٦.

١١١- **المسند**، ٦/ ٩١.

١١٢- متفق عليه من حديث عبد الله بن عمرو، **صحيح البخاري**، (ح ٣٣٦٦)، ٣ / ١٣٠٥، و**صحيح مسلم**، (ح٢٣٢١)، ٤/ ١٨١٠.

وخالق الناس بخلق حسن"(١١٣). فهذه الوصية تعتبر منهجاً شاملاً للحياة، فقوله: "اتق الله حيثما كنت"، يرسم للمسلم علاقته مع ربه في كل أحواله، وقوله: "وأتبع السيئة الحسنة تمحها"، يبين للمرء كيف يتعامل مع هذه النفس التي بين جنبيه وكيف يصلح أخطاءها ويقيم مسارها، وقوله: "وخالق الناس بخلق حسن"، يشرع للمؤمن المنهج الرباني في العلاقات البشرية وأنه يجب أن يسيطر عليها الخلق الحسن، لا أن تكون خاضعة لأهواء النفوس ومصالح البشر. وقال سبحانه وتعالى مؤكداً هذا الشمول في التعامل مع البشر: ﴿وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾(١١٤). وهذا الشمول في التعامل مع كل البشر يتطلب شمولاً أيضاً في جنس الخلق الذي يجب التعامل معهم من خلاله، فيجب أن يتعامل المرء مع كل الناس بحسن الخلق، ولمعرفة ما هو حسن الخلق نجد أن النواس بن سمعان الأنصاري رضي الله عنه سأل الرسول صلى الله عليه وسلم عن البر والإثم فقال الرسول صلى الله عليه وسلم: "البر حسن الخلق، والإثم ما حاك في صدرك وكرهت أن يطلع عليه الناس"(١١٥). ففسر النبي صلى الله عليه وسلم البر بحسن الخلق، وقال السدي: البر اسم جامع للخير كله(١١٦). فمن أراد الخير كله فعليه بحسن الخلق، مع جميع الخلق، وبين الإمام الشافعي رحمه الله أركان المروءة التي بها تستقيم أخلاق الإنسان فقال: "المروءة أربعة أركان: حسن الخلق، والسخاء، والتواضع، والنسك"(١١٧).

والتعامل مع الخلق كل الخلق بخلق حسن قد لا تستطيعه كل النفوس؛ ولذا رتّب الله عليه أعظم الأجر وبين الرسول صلى الله عليه وسلم أن أكمل الناس إيماناً أحسنهم أخلاقاً فعن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "أكمل المؤمنين إيماناً أحاسنهم أخلاقاً، الموطئون أكنافاً، الذين يألفون ويؤلفون، وليس منا من لا يألف ولا يؤلف"(١١٨).

١١٣- **المسند**، ٥/ ٢٢٨، **وسنن الترمذي**، ٤/ ٣٥٥، قال أبو عيسى: هذا حديث حسن صحيح، **والمستدرك على الصحيحين**، ١/ ١٢١، وقال الحاكم: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه، وأبو القاسم سليمان بن أحمد الطبراني، **المعجم الكبير**، تحقيق: حمدي عبد المجيد السلفي، مكتبة العلوم والحكم، الموصل، ١٤٠٤هـ ٢٠/ ١٤٤.

١١٤- سورة البقرة، الآية: ٨٣.

١١٥- **صحيح مسلم**، (ح ٢٥٥٣)، ٤/ ١٩٨٠.

١١٦- عياض بن موسى اليحصبي، **مشارق الأنوار على صحاح الآثار**، المكتبة العتيقة، ١/ ٨٤.

١١٧- البيهقي، **السنن الكبرى**، ١٠/ ١٩٥.

١١٨- أبو القاسم سليمان بن أحمد الطبراني، **المعجم الأوسط**، تحقيق: طارق بن عوض الله، دار الحرمين، القاهرة، ١٤١٥هـ ٤/ ٣٥٧.

كما بشّر أهل الأخلاق الحسنة بأن هذا الخلق هو أثقل أعمالهم يوم القيامة في ميزان حسناتهم فعن أبي الدرداء قال: سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول: "ما من شيء يوضع في الميزان أثقل من حسن الخلق وإن صاحب حسن الخلق ليبلغ به درجة صاحب الصوم والصلاة"(١١٩). وعظّم النبي صلى الله عليه وسلم شأن حسن الخلق حتى قال لزوجه أم سلمة: "ذهب حسن الخلق بخيري الدنيا والآخرة"(١٢٠). فإذا ذهب بخيري الدنيا والآخرة فماذا بقي لسائر الأعمال؟! ولكن إن كل عمل طيب مبارك فيه قيام بحق الله أو قيام بحقوق العباد فهو مبني على حسن الخلق.

وليست هذه الفضائل والأجور هي ما يترتب على حسن الخلق فقط بل بين النبي صلى الله عليه وسلم أن الأقرب منه مجلساً يوم القيامة هو من حسن خلقه، فعن عبدالله بن عمرو أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال في مجلس: "ألا أخبركم بأحبكم إليّ وأقربكم منّي مجلساً يوم القيامة؟! ثلاث مرات يقولها، قلنا: بلى يا رسول الله! قال: أحسنكم أخلاقاً"(١٢١).

ولن يستطيع الباحث أن يلم بكل آية أو حديث تناولت خلقاً محموداً فحثت عليه، أو ذكرت خلقاً ذميماً فحذرت منه، والناظر في هذه النصوص يجد أنها ركزت على أصول الأخلاق الحميدة: كالحياء والكرم والصدق والشجاعة والعفاف والعدل والحلم، وبينت أصول الأخلاق الخبيثة: كالكذب والبخل والحسد والكبر والنفاق والغش والنميمة والغيبة، ولن يتسع البحث لذكر دليل لكل خلق من هذه الأخلاق؛ ولكن لعل فيما ذكرته كفاية؛ إذ فيه بيان مكانة الخلق في هذا الدين، وبيان مكانة صاحبه يوم القيامة، وفضل المتخلق به في الدنيا والآخرة.

المطلب السابع: النظافة:

تعريف النظافة: قال في القاموس: "النظافة النقاوة، نظف، ككرم فهو نظيف ونظفه تنظيفاً فتنظف"(١٢٢). وقال ابن منظور: "النظافة النقاوة، النظافة مصدر التنظيف، والفعل اللازم منه نظف الشيء بالضم نظافة فهو نظيف حسن ونظفه ينظفه تنظيفاً أي نقاه"(١٢٣).

والنظافة في هذا الدين العظيم شاملة لجميع جوانب الحياة فهي نظافة للقلب والقالب، نظافة في

١١٩- سنن الترمذي، ٤/ ٣٦٣، وسنن أبي داود، ٤/ ٢٥٣.

١٢٠- المعجم الأوسط، ٣/ ٢٧٩.

١٢١- صحيح ابن حبان، ٢/ ٢٣٥.

١٢٢- القاموس، مادة "نظف".

١٢٣- لسان العرب، ج ٩، ص ٣٣٦.

القول والعمل، نظافة في المطعم والملبس والمشرب، نظافة للحي والشارع، نظافة حسية ومعنوية، وأعظم ما أمر الله عباده أن يتنظفوا منه الشرك قال جل ثناؤه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝٤ وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ﴾(١٢٤).

وفي هذه الآيات، وهي من أول ما نزل على رسوله صلى الله عليه وسلم، أمره الله سبحانه وتعالى أن يطهر ثيابه من النجاسات، وأن يطهر قلبه من الشرك، وأن يهجر كل ما يفضي إليه من سبب أو وسيلة، وأن يخلص عمله لله رب العالمين. قال ابن جرير رحمه الله: "وقوله ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾ اختلف أهل التأويل في تأويل ذلك فقال بعضهم: معنى ذلك لا تلبس ثيابك على معصية ولا على غدرة، ويرويه عن ابن عباس رضي الله عنهما من طريق عكرمة قال: أتاه رجل وأنا جالس فقال: أرأيت قول الله ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾ قال: لا تلبسها على معصية ولا على غدرة، ثم قال: أما سمعت قول غيلان بن سلمة الثقفي:

وإني بحمد الله لا ثوب فاجر ... لبست ولا من غدرة أتقنع

وقال آخرون: بل معنى ذلك لا تلبس ثيابك من مكسب غير طيب. وقال آخرون بل معنى ذلك أصلح عملك"(١٢٥). فأنت ترى أقوال المفسرين في معنى هذه الآيات أنها تتضمن الأمر بتنظيف وتنقية الظاهر والباطن. وقال ابن حجر رحمه الله: "﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ﴾ أي عظم ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾ أي من النجاسة، وقيل: الثياب النفس وتطهيرها اجتناب النقائص، والرجز هنا الأوثان"(١٢٦). وقال المباركفوري: "﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ﴾ أي عظّم ربك عما يقوله عبدة الأوثان ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾ أي من النجاسات والمستقذرات؛ وذلك أن المشركين لم يكونوا يحترزون عنها، فأُمِرَ صلى الله عليه وسلم بصون ثيابه من النجاسات وغيرها خلافاً للمشركين، ﴿وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ﴾ أي اترك الأوثان ولا تقربها"(١٢٧).

والأمر بالنظافة والتطهر من الشرك لا يكفي بل يجب على المسلم أن يتطهر من جميع الذنوب وآثارها؛ ولذا شرع الله الصلوات الخمس والوضوء عند كل صلاة لتتحقق هذه الطهارة اليومية من الذنوب، فعن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "إذا توضأ العبد المسلم أو المؤمن فغسل وجهه خرج من وجهه كل خطيئة نظر إليها بعينيه مع الماء أو مع آخر قطر الماء، فإذا غسل يديه خرج من

١٢٤- سورة المدثر، الآيات: ١-٥.

١٢٥- جامع البيان، ٢٩/ ١٤٤-١٤٦.

١٢٦- فتح الباري، ١/ ٢٨.

١٢٧- تحفة الأحوذي، ٩/ ١٧٢.

يديه كل خطيئة كان بطشتها يداه مع الماء أو مع آخر قطر الماء، فإذا غسل رجليه خرجت كل خطيئة مشتها رجلاه مع الماء أو مع آخر قطر الماء؛ حتى يخرج نقياً من الذنوب"(١٢٨). وكما يشرع للصلاة الوضوء فمعلوم أنه يسبقه الاستنجاء؛ ولذا أثنى الله على من بالغ في ذلك فقال جل ثناؤه: ﴿لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ﴾(١٢٩). قال ابن جرير رحمه الله: "يحبون أن ينظفوا مقاعدهم بالماء إذا أتوا الغائط"(١٣٠).

وحذر من التهاون بالتنزه عن البول وبين أن عامة عذاب القبر منه فعن ابن عباس رضي الله عنه قال: مر النبي صلى الله عليه وسلم بقبرين فقال: "إنهما ليعذبان، وما يعذبان في كبير! أما أحدهما فكان لا يستتر من البول، وأما الآخر فكان يمشي بالنميمة"(١٣١).

كما شرع أيضاً صلاة الجمعة للنظافة الأسبوعية شرع لها الاغتسال والطيب والادّهان قبلها فعن سلمان الفارسي قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "من اغتسل يوم الجمعة وتطهر بما استطاع من طهر، ثم ادهن أو مس من طيب، ثم راح فلم يفرق بين اثنين فصلى ما كتب له، ثم إذا خرج الإمام أنصت غفر له ما بينه وبين الجمعة الأخرى"(١٣٢). فمن تقرب إلى الله بهذه العبادة العظيمة جعله الله نقيا من الذنوب والآثام ـ ما لم يغش كبيرة ـ من الجمعة إلى الجمعة وزيادة ثلاثة أيام قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "من توضأ فأحسن الوضوء ثم أتى الجمعة فسمع وأنصت غفر له ما بين الجمعة إلى الجمعة وزيادة ثلاثة أيام"(١٣٣).

وشرع صيام رمضان للطهارة السنوية فعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "من قام ليلة القدر إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه، ومن صام رمضان إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه"(١٣٤).

كما شرع العمرة والحج مرة واحدة ليتحقق للمسلم طهارة تامة من الذنوب ويرجع من حجه

١٢٨- صحيح مسلم، (ح ٢٤٤)، ١/ ٢٥٥.

١٢٩- سورة التوبة، الآية: ١٠٨.

١٣٠- جامع البيان، ١١/ ٢٩.

١٣١- صحيح البخاري، (ح ٢١٥)، ١/ ٨٨، وصحيح مسلم، (ح ٢٩٢)، ١/ ٢٤٠.

١٣٢- صحيح البخاري، (ح ٨٦٨)، ١/ ٣٠٨، وصحيح مسلم، ٨٥٠، ٢/ ٥٨٢.

١٣٣- المسند المستخرج على صحيح مسلم، ١/ ٢٩٦.

١٣٤- صحيح البخاري، (ح ١٨٠٢)، ٢/ ٦٧٢، وصحيح مسلم، ٧٦٠، ١/ ٥٢٣.

وعمرته إذا أحسنهما كيوم ولدته أمه، فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "العمرة إلى العمرة كفارة لما بينهما والحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة"(١٣٥). وقال صلى الله عليه وسلم: "من حج لله فلم يرفث ولم يفسق رجع كيوم ولدته أمه"(١٣٦).

ومع أن الشارع الحكيم شرع هذه العبادات وغيرها لطهارة ونظافة الباطن من الآثام والذنوب فقد شرع عبادات أخرى تتعلق بنظافة الجسد من الخارج؛ حتى تتوافق نظافة الباطن والظاهر فمن ذلك الوضوء لكل صلاة، والاغتسال الواجب من الحدث الأكبر، والاغتسال ليوم الجمعة، ومن ذلك العناية بالمظهر كقص الأظافر وما شابهه من سنن الفطرة؛ ولذا قال صلى الله عليه وسلم: "الفطرة خمس، أو خمس من الفطرة: الختان والاستحداد ونتف الإبط وتقليم الأظفار وقص الشارب"(١٣٧).

وقال مراد هوفمان سفير ألمانيا السابق في المغرب بعد أن استعرض موجبات الطهارة والنظافة في الإسلام قال: "ويمكنني أن أقول بصدق: إنني انزعجت مراراً من رائحة أناس يجلسون بجانبي في حفلات الأوبرا الغنائية في باريس أو في مركز لنكولن في نيويورك، أو في المسرح الوطني في ميونخ؛ إلا أنني لم أنزعج من رائحة كريهة على الإطلاق في مسجد من مساجد المسلمين. ثم طرح السؤال التالي: هل يمكن أن يعني هذا أن المسلمين هم الأنظف؟!"(١٣٨).

وأمر النبي الكريم صلى الله عليه وسلم أن يحرص المسلم على طيب كلامه وفعله ومأكله فقال صلى الله عليه وسلم: "طيبوا أفواهكم بالسواك فإنها طرق القرآن"(١٣٩) قال أبو السعادات ابن الجزري: "أي صونوها عن اللغو والفحش والغيبة والنميمة والكذب وأمثالها، وعن أكل الحرام والقاذورات، والحثّ على تطهيرها من النجاسات"(١٤٠).

وهذا الأمر بالعناية بنظافة المظهر والمخبر لا يقف عند هذا الحد بل يتجاوزه إلى أن يكون تنبيها

١٣٥- متفق عليه من حديث أبي هريرة، **صحيح البخاري**، (ح ١٦٨٣)، ٢/ ٦٢٩، و**صحيح مسلم**، ١٣٤٩، ٢/ ٩٨٣.

١٣٦- **صحيح البخاري**، (ح ١٤٤٩)، ٢/ ٥٥٣.

١٣٧- **صحيح البخاري**، (ح ٥٥٠٠)، و**صحيح مسلم**، (ح ٢٥٧)، ١/ ٢٢١.

١٣٨- مراد هوفمان، **الرحلة إلى الإسلام: يوميات دبلوماسي ألماني**، ترجمة: محمد سعيد دباس، مكتبة العبيكان، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤٢٦هـ ص ١٢٣.

١٣٩- قال عنه الألباني: صحيح، انظر: **صحيح وضعيف الجامع الصغير**، رقم ٣٩٣٩.

١٤٠- أبو السعادات محمد بن المبارك الجزري، **النهاية في غريب الأثر**، تحقيق: طاهر أحمد الزواوي، ومحمود الطناحي، المكتبة العلمية، بيروت، ط ١، ١٣٩٩هـ ٥/ ٧٦-٧٧.

للمسلم أن يختار العبارة التي ليس فيها تشاؤم ولا دلالة على خبيث قولي أو فعلي إذا أراد أن يصف ضعف حالته النفسية، فمن ذلك قوله صلى الله عليه وسلم: "قال لا يقولن أحدكم خبثت نفسي ولكن ليقل لقست نفسي"(١٤١). قال ابن أبي جمرة: "ويؤخذ من الحديث استحباب مجانبة الألفاظ القبيحة والأسماء، والعدول إلى ما لا قبح فيه، والخبث واللقس وإن كان المعنى المراد يتأدى بكل منهما لكن لفظ الخبث قبيح ويجمع أموراً زائدة على المراد، بخلاف اللقس فإنه يختص بامتلاء المعدة، قال: وفيه أن المرء يطلب الخير حتى بالفأل الحسن، ويضيف الخير إلى نفسه ولو بنسبة ما، ويدفع الشر عن نفسه مهما أمكن، ويقطع الوصلة بينه وبين أهل الشر حتى في الألفاظ المشتركة، قال ويلتحق بهذا أن الضعيف إذا سئل عن حاله لا يقول: لست بطيب، بل يقول: ضعيف، ولا يخرج نفسه من الطيبين فيلحقها بالخبيثين"(١٤٢).

وفوق ذلك انتقل بالفرد المسلم من الاهتمام بنظافته الشخصية إلى الأمر بالمحافظة على النظافة العامة فقد أرشد النبي الكريم صلى الله عليه وسلم إلى العناية بنظافة الحي فقال: "إن الله طيب يحب الطيب، نظيف يحب النظافة، كريم يحب الكرم، جواد يحب الجود؛ فنظفوا ـ أراه قال ـ: أفنيتكم ولا تشبهوا باليهود"(١٤٣). قال الطيبي: "إذا تقرر ذلك فطيبوا كل ما أمكن تطييبه، ونظفوا كل ما سهل لكم تنظيفه، حتى أفنية الدار وهي متسع أمام الدار، وهو كناية عن نهاية الكرم والجود، فإن ساحة الدار إذا كانت واسعة نظيفة طيبة كانت أدعى بجلب الضيفان وتناوب الواردين والصادرين"(١٤٤).

ألم تر أن النظافة في هذا الدين تعتبر منظومة متكاملة فهي نظافة القلب والقالب نظافة الروح والبدن نظافة المسكن والملبس نظافة الحي والشارع، نظافة الثوب والفرش والأثاث، نظافة يومية وأخرى أسبوعية ... فسبحان من شرع هذا الدين الذي تضمن كل ما فيه صلاح البشر وصلاح الحياة والأحياء.

فرغ الباحث من الحديث عن القيم الاجتماعية ولم ينته ما تضمنته النصوص في هذا الباب، ولكن حسب الباحث أنه ذكر إشارات، وأومأ إلى أصول في هذا الباب توصل إلى ما سواها، وترشد إلى مثيلاتها، وبعد ذلك ينتقل البحث إلى وجهة أخرى.

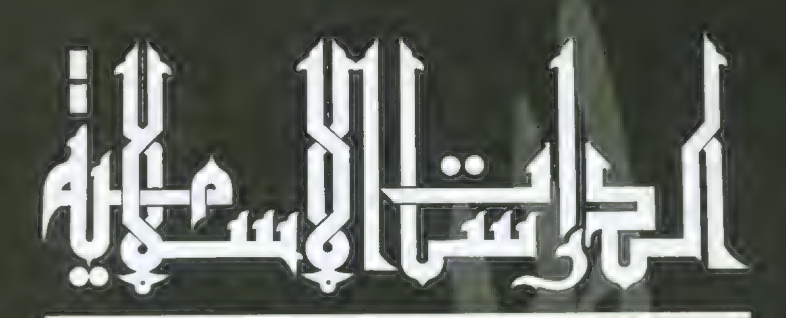
****

١٤١- صحيح البخاري، (ح ٥٨٢٦)، ٥/ ٢٢٨٦، وصحيح مسلم، (ح ٢٢٥٠)، ٤/ ١٧٦٥.

١٤٢- فتح الباري، ١٠/ ٥٦٤.

١٤٣- سنن الترمذي، ٥/ ١١١، وقال عنه الألباني: حديث حسن.

١٤٤- تحفة الأحوذي، ٨/ ٦٧-٦٨.



العدد الثالث، المجلد الرابع والأربعون - الخريف (يوليو - سبتمبر ٢٠٠٩م/ رجب - رمضان ١٤٣٠هـ)

مجمع البحوث الإسلامية
الجامعة الإسلامية العالمية إسلام آباد - باكستان

القيم الحضارية في رسالة خير البشرية ﷺ: (٣) القيم الإدارية

محمد بن عبد الله بن صالح السحيم

المبحث الثالث: القيم الإدارية:

لئن كان البحث في المباحث السابقة تناول الجانب العلمي والجانب الاجتماعي فهو هنا يتناول مبحثا لا تستغني عنه أمة، ولا تقوم من دونه دولة، ولا تنشأ بمعزل عنه حضارة، ألا وهو مبحث القيم الإدارية، والإسلام لم يهمل هذا الجانب بل أولاه عناية بالغة، ووضع أصوله وقواعده، وقد أوردت تحت ذلك ستة مطالب هي:

المطلب الأول: تدوين العقائد والقواعد والأحكام والمبادئ وشمولها:

مما تميّز به الإسلام أنه شامل لكل شيء، شامل للخالق والمخلوق، للدنيا والآخرة، للدين والدنيا، للسفر والحضر، للإنسان والكون والنبات والحيوان، شمول يتضمن القواعد والأصول والمبادئ والأحكام والأهداف، وهذا يجعل رجل السياسة والقضاء وغيرهم ممن له احتياج مباشر إلى القواعد والأحكام وسائر المسلمين في سعة من أمرهم فلا ينتظروا رأي العالم في كل مسألة، بل لا يرجعون إليه إلا في المعضلات، ولا يفاجؤوا بتغير الحكم لتغير الزمان، فهم يعرفون قواعده وأصوله ومبادئه... فكل ما يحتاج إليه المسلم قد شمله هذا الدين، قال تعالى: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ﴾[1]، وقال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ ۚ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ﴾[2]، وقال عز شأنه: ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلًا﴾[3]. قال ابن جرير رحمه الله في معنى الآية: "وكل شيء بيناه بياناً شافياً لكم

١- سورة الأنعام، الآية: ٣٨.

٢- سورة يس، الآية: ١٢.

٣- سورة الإسراء، الآية: ١٢.

أيها الناس لتشكروا الله على ما أنعم به عليكم من نعمه وتخلصوا له العبادة دون الآلهة والأوثان"(٤).

فالحلال بيّن والحرام بيّن، والعقائد واضحة، والشرائع محكمة، والأخلاق شاملة، والأهداف دقيقة، والمثُل رائعة، وهذا الشمول والإحاطة جعلت المشركين في عهد الرسالة يستكثرون ذلك إذا لم يألفوا مثله فقالوا للصحابة: إن صاحبكم يعلّمكم كل شيء، فعن سلمان رضي الله عنه قال: "قال لنا المشركون: إني أرى صاحبكم يعلمكم حتى يعلمكم الخراءة؟! فقال: أجل! إنه نهانا أن يستنجي أحدنا بيمينه، أو يستقبل القبلة، ونهى عن الروث والعظام، وقال: لا يستنجي أحدكم دون ثلاثة أحجار"(٥). وأخبرنا أبو ذر رضي الله عنه عن هذا الشمول فقال: "تركنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وما طائر يقلب جناحيه في الهواء إلا وهو يُذَكِّرُنَا مِنْهُ علماً، وقال: فقال صلى الله عليه وسلم: ما بقي شيء يقرّب من الجنة ويباعد من النار إلا وقد بيّن لكم"(٦).

وقال صلى الله عليه وسلم: "إن الحلال بيّن وإن الحرام بيّن وبينهما مشتبهات لا يعلمهن كثير من الناس، فمن اتقى الشبهات استبرأ لدينه وعرضه، ومن وقع في الشبهات وقع في الحرام كالراعي يرعى حول الحمى يوشك أن يرتع فيه، ألا وإن لكل ملك حمى، ألا وإن حمى الله محارمه، ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب"(٧).

وقال تعالى موضحاً المحرمات التي حرمها على عباده: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُم مِّنْ إِمْلَاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٢﴾ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾(٨). وأوضح تعالى في سورة الإسراء أصول القواعد

٤- محمد بن جرير الطبري، جامع البيان، تحقيق: محمد أحمد شاكر، مؤسسة الرسالة، ط ١، ١٤٢٠هـ ١٥/ ٤٩.

٥- صحيح مسلم، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث، ح ٢٦٢، ١/ ٢٢٤.

٦- الطبراني، المعجم الكبير، تحقيق: حمدي عبد المجيد السلفي، مكتبة العلوم والحكم، الموصل، ١٤٠٤هـ ٢/ ١٥٥

٧- صحيح البخاري، دار ابن كثير، بيروت، ١٤٠٧هـ ح ٥٢، ١/ ٢٨، وصحيح مسلم واللفظ له، ح ١٥٩٩، ٣/ ١٢١٩

٨- سورة الأنعام، الآيات: ١٥١ - ١٥٣.

والأحكام التي جاء بها الأنبياء: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوْحَىٰٓ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلْحِكْمَةِ ۗ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتُلْقَىٰ فِى جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا﴾(٩). فالقارئ يرى الإحكام والشمول ظاهراً في هذا المنهج، فالقواعد والمبادئ والأحكام التي يتطلبها دستور الدولة كاملة متوافرة في هذا الدين؛ ولذا لم تواجه الدولة الإسلامية منذ نشأتها معضلة الاتفاق على المحرمات والممنوعات والحقوق والواجبات، ولم تواجه أيضاً معضلة تدوين الدستور، بل كان لديها دستور رائد عادل شامل سالم مما ابتليت به كثير من الدساتير وما يصاحب تدوينها من التقليدية والتبعية، وما يعرض لها من الزيادة والنقصان، وما تخضع له بعض مواده من إخضاعها للتجربة فترة من الزمن لقياسها لمعرفة مدى تحقيقها للغرض الذي وضعت من أجله؛ ولذا تُجرى على دساتير الدول عمليات التجديد والإضافة.

كما أن رجال الفقه والقضاء في الدولة الإسلامية لا يمكن أن ينظروا في إمكانية إباحة الزنا أو الربا أو اللواط أو الخمر، لأن هذا من ضمن المحرمات التي لا مساومة فيها في الإسلام، بينما نجد الدول التي تحل ذلك تعاني التردد في إباحة ذلك وسن الأنظمة التي تخفف من التبعات المترتبة على تعاطيها، فكم تعاني الدول معالجة الآثار المترتبة على الإذن بتعاطي هذه الموبقات كعلاج مرضى الأيدز والحماية منه والتوعية بخطره، والحيلولة دون قيادة المخمورين للسيارات وغير ذلك.

ولا يظن القارئ أن كون الإسلام نزل قبل أكثر من أربعة عشر قرنا أنه نظام جامد لا يستجيب لمتغير، ولا يتوافق مع محدثات العصر، بل فيه من المرونة والقابلية للإضافة والاستيعاب لكل حادثة بما لا يتعارض مع أصوله ومبادئه وأحكامه وقواعده، وهو ما يسمى في كتب الفقه "أبواب الاجتهاد ومسائله وضوابطه وحدوده". فالحمد لله الذي أتم النعمة ورضي لنا الإسلام ديناً.

المطلب الثاني: كفالة الحقوق:

إن هذا العصر الذي نعيشه يكاد يكون الطابع الحقوقي هو المسيطر عليه فلا تكاد تخطئك العبارات التي تطالب بحقوق الإنسان أو البيئة أو الحيوان أو غير ذلك، ولعل السبب في ذلك هو كثرة انتهاك هذه الحقوق في هذا العصر، فعظمت المطالبة بها، ودوّنت المواثيق التي تحفظها، وجرمت الدول التي تخالفها ... إلى آخره. والسبب أيضاً في انتهاك الحقوق في هذا العصر هو بعد الإنسان عن الشريعة

٩- سورة الإسراء، الآيات: ٢٣-٣٩.

الإلهية التي كفلت الحقوق. وغلبة المصالح الشخصية والعرقية والوطنية على المحافظة على الحقوق.

والمطلع على الشرائع الإلهية يعلم أن غاية الرسالات الإلهية من آدم إلى نبينا محمد عليهم أفضل الصلاة والسلام هي حفظ الحقوق ورفع المظالم، ولا غرو أن أكد نبينا محمد صلى الله عليه وسلم هذا الجانب أعظم تأكيد، فبين الحقوق وعظم شأن وفائها، وحذر من نقصها وتطفيفها، وجاءت الأدلة عامة وخاصة، عامة تؤكد على الوفاء بالحقوق، وخاصة تبين حق كل ذي حق وتؤكد الوفاء بها وتذكر عاقبة الإخلال بها، وأعظم هذه الحقوق التي جاءت الشرائع الإلهية بالتوكيد عليها هو حق الله سبحانه وتعالى، ثم حقوق المخلوقين بعضهم على بعض، سواء كان هذا المخلوق رجلاً أو امرأة، كبيراً أو طفلاً أو جنيناً، عاقلاً أو سفيهاً أو مجنوناً، عدواً أو صديقاً، مسافراً أو مقيماً مواطناً أو وافداً، حيواناً أو طيراً أو جناً، أو بيئة... فقد كفلت حقوقهم كلهم كفالة لم تبلغها المواثيق الدولية المعاصرة، وسأذكر بعض النصوص الدالة على حفظ هذه الحقوق ولن أستعرض كل الأدلة المتعلقة بكل ذي حق وكيف حفظ له؛ لأن ذلك يطول بنا ولن نستطيع الإحاطة به، ولكن يكفي موضع الشاهد ومحل الحجة. وفيما يلي ذكر لأهم هذه الحقوق. فمن ذلك:

أولا: حق الخالق سبحانه وتعالى: فحقه أن يطاع فلا يعصى، ويشكر فلا يكفر، ويذكر فلا ينسى، ويعبد فلا يجحد، قال صلى الله عليه وسلم لمعاذ رضي الله عنه: "يا معاذ! قلت: لبيك وسعديك، ثم قال مثله ثلاثاً: هل تدري ما حق الله على العباد؟ قلت لا. قال: حق الله على العباد أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً. ثم سار ساعة فقال يا معاذ! قلت: لبيك وسعديك قال: هل تدري ما حق العباد على الله إذا فعلوا ذلك؟ ألا يعذبهم"[١٠]. وبين سبحانه وتعالى أنه خلق الخلق لهذه الغاية فقال جل ثناؤه: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾[١١]. وليست عبادته سبحانه وتعالى قاصرة على أداء شعيرة في معبد مرة كل يوم أو كل أسبوع؛ بل عبادته أشمل من ذلك، فعبادته تتناول اتباع شرعه ولزوم منهجه، والتقرب إليه بكل ما يحبه ويرضاه، وإن أعظم حقوقه على عباده إفراده سبحانه وتعالى بحق التشريع فهو المشرع سبحانه وتعالى، قال تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ شَرَعُوا۟ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةُ ٱلْفَصْلِ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[١٢]. وهذا الحق جعلته المدنية اليوم من خالص خصائصها،

١٠- متفق عليه من حديث أنس، **صحيح البخاري**، ح ٥٩١٢، ٥/ ٢٣١٢، و**صحيح مسلم**، ح ٣٠، ١/ ٥٨.

١١- سورة الذاريات، الآية: ٥٦.

١٢- سورة الشورى، الآية: ٢١.

وهو تعد على مقام الربوبية. فالله هو الذي يشرع الدين ويشرع الأحكام التي يتحاكم إليها البشر في كل شؤونهم.

الثاني: حق الأنبياء عليهم الصلاة والسلام: وحقوقهم على أتباعهم كثيرة ومنها تصديقهم فيما أخبروا به، وطاعتهم فيما أمروا، وألا يعبد الله إلا بما شرعوا وبلغوا، وأن ننتهي عما نهوا عنه، والمسلم يعتقد الإيمان بجميع الأنبياء والمرسلين ويوقرهم ويحترمهم ويعتقد أنهم رسل الله حقاً، قال تعالى: ﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَـٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ۚ وَقَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴾[١٣]، وأن على المرء طاعتهم، قال تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُوا۟ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴾[١٤].

الثالث: حق الوالدين على أولادهما: هذا الحق حق عظيم في هذا الدين العظيم، ويكفي أن يقرن الله طاعتهما بطاعته، ويقرن الشرك به بوجوب طاعتهما والإحسان إليهما، قال جل ثناؤه: ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَـٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ۝ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴾[١٥]. وقال عز من قائل: ﴿ قُلْ تَعَالَوْا۟ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ۖ أَلَّا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَـٰنًا ۖ ﴾[١٦].

الرابع: حق الولد على الوالد: حقوقه كثيرة ومتعددة، فأول حق للطفل قبل أن يولد أن يختار له الأم، وأن يطعمه مما يطعم ويلبسه مما يلبس، وأن يحسن تسميته وأدبه، وأن يعق عنه، وأن يعلمه التعليم المناسب، وينشئه التنشئة الطيبة وأن يدله على الخير وأيّ خير أعظم من أن يدله على الدين الصحيح بأدلته وبراهينه، لئلا ينشأ مقلداً، ومن حقه الإنفاق عليه وتزويجه إذا بلغ والدعاء له بالخير والحب والعطف والشفقة ... إلخ. وقد آثرت ألا أذكر لكل مسألة هنا دليلاً لئلا يطول المقام.

الخامس: حق الزوجين كلاً منهما على الآخر: وهذا الحق من أكثر المسائل تكرراً في نصوص الشرع وسأكتفي

١٣- سورة البقرة، الآية: ٢٨٥.

١٤- سورة النساء، الآية: ٦٤.

١٥- سورة الإسراء، الآيتان: ٢٣، ٢٤.

١٦- سورة الأنعام، الآية: ١٥١.

بذكر ثلاث آيات كريمات فقط اشتملت على بلاغة في العبارة، واستيفاء للحقوق، وامتنان من الله على عباده بعظم هذه النعمة أي رباط الزوجية، وهي كالتالي:

الآية الأولى: قال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾(١٧). وليتأمل القارئ الكريم قوله: "من أنفسكم" وقوله: "لتسكنوا إليها" فجعل السكن إليها وليس معها وهذا أبلغ.

الآية الثانية: قوله تعالى: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ ۚ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ﴾(١٨). فعبر عن كل من الزوجين تجاه الآخر بأنه لباس له، وهل هناك ألصق من اللباس للجسد فلا يفارقه، وهو مناسب له ومباشر له، وهو معه في كل أحواله.

الآية الثالثة: قوله تعالى: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾(١٩). فأرشد إلى أن تكون العلاقة بين الزوجين بالمعروف أي ما تعارف الناس عليه أنه معاشرة معروفة طيبة مقبولة.

السادس: حق الإنسان على أخيه الإنسان: أن يلقاه بوجه طليق، قال صلى الله عليه وسلم: "لا تحقرن من المعروف شيئاً ولو أن تلقى أخاك بوجه طلق"(٢٠)، وأن يسلّم عليه حين يلقاه، وأن يزوره إذا مرض، وأن يجيبه إذا دعاه، وأن يتبع جنازته إذا مات، قال صلى الله عليه وسلم: "حق المسلم على المسلم خمس: ردّ السلام وعيادة المريض واتباع الجنائز وإجابة الدعوة وتشميت العاطس"(٢١)، وأن يكف عنه أذاه، ولما سأل الصحابة الرسول صلى الله عليه وسلم عن أيّ الإسلام أفضل؟ فقال صلى الله عليه وسلم: "من سلم المسلمون من لسانه ويده"(٢٢)، وأن يحترم ماله وعرضه ودمه ودينه؛ ولذا أعلن النبي الكريم صلى الله عليه وسلم في أعظم جمع حضره الصحابة الكرام رضي الله عنهم عن هذه الكليات فقال في خطبة حجة الوداع: "إن الله حرّم عليكم دماءكم وأموالكم كحرمة يومكم هذا في بلدكم هذا في شهركم هذا، ألا هل

١٧- سورة الروم، الآية: ٢١.

١٨- سورة البقرة، الآية: ١٨٧.

١٩- سورة النساء، الآية: ١٩.

٢٠- المرجع السابق، ح ٢٦٢٦، ٤/ ٢٠٢٦.

٢١- صحيح البخاري، ح ١١٨٣، ١/ ٤١٨، وصحيح مسلم، ح ٢١٦٢، ٤/ ١٧٠٤.

٢٢- صحيح البخاري، ح ١١، ١/ ١٣، وصحيح مسلم، ح ٤٠، ١/ ٦٥.

بلغت؟ قالوا: نعم، قال: اللهم اشهد - ثلاثاً - ويلكم أو ويحكم انظروا لا ترجعوا بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض"(٢٣). وقال صلى الله عليه وسلم: "كل المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه"(٢٤) إلى غير ذلك من الحقوق التي يطول المقام بتعدادها، وإنما القصد ذكر الشاهد.

السابع: حق الجوار: وأكثر جبريل عليه السلام من الوصية بشأنه حتى ظن الرسول صلى الله عليه وسلم أنه سيكون له نصيب في الميراث، قال صلى الله عليه وسلم: "ما زال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه ليورثنه"(٢٥). وبيّن العلماء أن الجيران ثلاثة: من له حق الجوار والقربى والإسلام، ومن له حق الجوار والإسلام، ومن له حق الجوار فقط، قال تعالى: ﴿وَٱعْبُدُوا ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا﴾(٢٦). وحرّم أذية الجار وبيّن أنها أعظم حرمة من أذية غيره، وإن كانت كلها محرمة فقال عليه السلام: "والله لا يؤمن، والله لا يؤمن، والله لا يؤمن، قيل: ومن يا رسول الله؟ قال: الذي لا يأمن جاره بوائقه"(٢٧).

هذه بعض الحقوق التي جاء بها الإسلام، وهناك حقوق أخرى آثرت عدم الحديث عنها مخافة أن يطول البحث، ومن ذلك: حق العامل، وحق عابر السبيل، وحق المسكين، وحق الأرملة، وحق اليتيم، وحق المسن، وحق السفيه والمجنون، وحق العدو، وحق الحيوان والطير والجن، وحق البيئة. ومن تتبع نصوص الكتاب والسنة وجد من ذلك الشيء الكثير.

المطلب الثالث: تنمية المال والمحافظة عليه:

المال هو عصب الحياة وشريان الاقتصاد وقوام الناس، قال تعالى: ﴿وَلَا تُؤْتُوا ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ ٱلَّتِى جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ قِيَٰمًا وَٱرْزُقُوهُمْ فِيهَا وَٱكْسُوهُمْ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾(٢٨)، ولذا نهى الله عباده عن إيتاء أموالهم للسفهاء الذين لا يعرفون كيف يديرون المال ويحافظون عليه.

٢٣- **صحيح البخاري**، ح ٤١٤١، ٤/١٥٩٨، و**صحيح مسلم**، ح ١٢١٨، ٢/ ٨٨٩.

٢٤- المرجع السابق، ح ٢٥٦٤، ٤/ ١٩٨٦.

٢٥- المرجع السابق، ج ٢٦٢٤، ٤/ ٢٠٢٥.

٢٦- سورة النساء، الآية: ٣٦.

٢٧- **صحيح البخاري**، ح ٥٦٧٠، ٥/ ٢٢٤٠، واللفظ له، و**صحيح مسلم**، ح ٤٦، ١/ ٦٨.

٢٨- سورة النساء، الآية: ٥.

والمال في نظر المسلم هو مال الله آتاه الله إياه لينتفع به وفق ما أمر به، قال جل ثناؤه: ﴿وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ ءَاتَىٰكُمْ﴾(٢٩). ابتلاء واختباراً لينظر كيف نعمل، قال تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ مِنۢ بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾(٣٠). وأذن في البيع والشراء الذي فيه تنمية المال فقال سبحانه وتعالى: ﴿وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰا۟﴾(٣١) وقال جل ثناؤه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْا۟ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ وَذَرُوا۟ ٱلْبَيْعَ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾(٣٢). فليس غرض البيع فقط تحصيل القوت الضروري، فالإسلام لا يمنع من طلب الغنى والكسب الحلال؛ ولذا قال صلى الله عليه وسلم: "لا بأس بالغنى لمن اتقى"(٣٣).

على أن يكون هذا البيع موافقاً للشريعة خالياً من الربا والغش والخديعة والجهالة والغرر والضرر بالبائع أو المشتري، وأن لا يكون مسروقاً ولذا قال صلى الله عليه وسلم: "وإن هذا المال حلوة من أخذه بحقه ووضعه في حقه فنعم المعونة هو، ومن أخذه بغير حقه كان كالذي يأكل ولا يشبع"(٣٤) وقال صلى الله عليه وسلم لعمرو بن العاص رضي الله عنه: "يا عمرو! نعم المال الصالح للرجل الصالح"(٣٥). وأذن في الأكل منه بغير إسراف ولا تقتير، فقال تعالى: ﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ خُذُوا۟ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾(٣٦). وشرع لمن آتاه الله مالاً أن يظهر عليه أثر هذه النعمة فعن أبي الأحوص عن أبيه أنه أتى النبي صلى الله عليه وسلم فرآه رسول الله صلى الله عليه وسلم أشعث أغبر

٢٩- سورة النور، الآية: ٣٣.

٣٠- سورة يونس، الآية: ١٤.

٣١- سورة البقرة، الآية: ٢٧٥.

٣٢- سورة الجمعة، الآيتان: ٩-١٠.

٣٣- الحاكم النيسابوري، **المستدرك على الصحيحين**، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١١هـ، ٢/ ٣.

٣٤- **صحيح البخاري**، ح ٦٠٦٣، ٥/ ٢٣٦٢.

٣٥- أحمد بن حنبل، **المسند**، مؤسسة قرطبة، مصر، ٤/ ١٩٧، و**المستدرك على الصحيحين**، ٢/ ٣ وقال الحاكم: هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه. و**مصنف ابن أبي شيبة**، مكتبة الرشد، الرياض، ط ١، ٤/ ٤٦٧، والطبراني، **المعجم الأوسط**، تحقيق: طارق بن عوض الله، دار الحرمين، القاهرة، ١٤١٥هـ ٣/ ٢٩٢.

٣٦- سورة الأعراف، الآية: ٣١.

في هيئة أعرابي فقال: "ما لك من المال؟! قال: من كل المال قد آتاني الله، قال: إن الله إذا أنعم على العبد نعمة أحب أن ترى به"(٣٧)، وهذا الإظهار لأثر نعمة المال على صاحبه يجب ألا يبلغ به حد الكبر؛ ولذا لما نهى الرسول صلى الله عليه وسلم عن الكبر ظن بعض الصحابة رضي الله عنهم أن ذلك يستلزم إهمال المظهر فعن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر! قال رجل: إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسناً ونعله حسنة. قال: إن الله جميل يحب الجمال، الكبر بطر الحق وغمط الناس"(٣٨).

وندب الله إلى إنفاقه في مصارفه المشروعة، فدعا إلى الإنفاق دعوة عامة فقال سبحانه وتعالى: ﴿آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَأَنفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ﴾(٣٩)، وبين أن في أموال الأغنياء حقاً للسائل والمحروم فقال جل ثناؤه: ﴿وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ﴾(٤٠). كما أوجب في سائر الأموال زكاة تؤدى إلى أصحابها كما أوضحتها دواوين السنة وفصلت القول في أنصبتها ومقاديرها، وبيّن القرآن مصارف هذه الزكوات وقصرها عليهم لئلا تتدخل الأهواء فتحول بين أصحاب الزكاة المستفيدين منها وبين حقهم في هذا المال.

المطلب الرابع: العدل:

العدل ضد الجور وما قام في النفوس أنه مستقيم. وقيل: العدل مصدر بمعنى العدالة، وهو الاعتدال والاستقامة، وهو الميل إلى الحق(٤١). وهذا الأمر العظيم في نفسه، العظيم في أثره أوجبه الله على

٣٧- **صحيح ابن حبان**، تحقيق: شعيب الأرناؤوط، دار الرسالة، بيروت، ط ٢، ١٤١٤هـ ١٢/ ٢٣٥، وأخرجه النسائي في **السنن**، تحقيق: عبد الفتاح أبو غدة، مكتب المطبوعات، سوريا، ط ٢، ١٤٠٦هـ ٥/ ٤٥٩، والطبراني في **المعجم الصغير**، تحقيق: محمود شكور ومحمود الحاج، المكتب الإسلامي، بيروت، ١٤٠٥هـ ١/ ٢٩٥، **والأوسط**، ٢/ ١٩٧، **والكبير**، ١٩/ ٢٧٧.

٣٨- **صحيح مسلم**، ح ٩١، ١/ ٩٣.

٣٩- سورة الحديد، الآية: ٧.

٤٠- سورة الذاريات، الآية: ١٩.

٤١- الفيروز آبادي، **القاموس المحيط**، مادة "عدل"، ١/ ١٣٣١، وابن منظور، **لسان العرب**، دار صادر، بيروت، ط ١، ١١/ ٣٤٠، الجرجاني، **التعريفات**، تحقيق: إبراهيم الأبياري، دار الكتاب العربي، بيروت، ط ١، ١٤٠٥هـ ١/ ١٩٢، وانظر: زكريا بن محمد الأنصاري، **الحدود الأنيقة**، تحقيق: مازن مبارك، دار الفكر المعاصر، بيروت، ط١، ١٤١١هـ ١/ ٧٣.

نفسه، وأوجبه على عباده، وحرم عليهم ظلم أنفسهم وغيرهم، وما ذلك إلا لأن الحياة لا تستقيم مع الجور والظلم، وإن استمرت على الضيق والشظف وقلة ذات اليد، والدول والممالك والحضارات لا تقوم إلا على نظام من العدل، ومساواة في الحقوق، وقيام بالعهود، وما لم يستيقن المحق أنه سينال حقه كاملا، ويعلم الظالم أنه سيردع عاجلا، فلن تقوم حضارة ولن يستقيم عماد دولة، ولن يستتب أمن.

ومن أجل ذلك جاءت النصوص الشرعية الكثيرة الواردة في الأمر بالعدل وتحريم الظلم، ومبينة عاقبة الإنصاف، ومحذرة من مغبة الجور، وواصفة مآل الظالمين، ومبشرة بفوز المنصفين في الدنيا والآخرة، ومن ذلك أن الله سبحانه وتعالى حرم الظلم على نفسه فقال: "يا عبادي! إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا... يا عبادي! إنما هي أعمالكم أحصيها لكم ثم أوفيكم إياها فمن وجد خيراً فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه"(٤٢).

وقام النبي صلى الله عليه وسلم بالعدل خير قيام، فبينما هو في مرض موته الذي يعلم أنه بعده مفارق هذه الحياة وخشي أن يلقى ربه وعنده لأحد مظلمة، خرج من بيته متكئاً على ابن عمه الفضل بن عباس ويتهادى حتى يصل إلى المسجد ويجلس على المنبر، ونترك الفضل بن عباس رضي الله عنه يحدثنا هذا الحديث فيقول: "أتاني رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يوعك وعكاً شديداً وقد عصب رأسه، فقال: خذ بيدي يا فضل! فأخذت بيده حتى قعد على المنبر ثم قال ... فذكر الحديث إلى أن قال: من قد كنتُ أخذت له مالاً فهذا مالي فليأخذ منه. فقام رجل فقال: يا رسول الله! إن لي عندك ثلاثة دراهم فقال: أما أنا فلا أكذّب قائلاً، ولا أستحلفه على يمين، فبم كانت لك عندي؟ قال: أما تذكر أنه مر بك سائل فأمرتني فأعطيته ثلاثة دراهم؟ قال أعطه يا فضل"(٤٣).

وفي عهده الشريف صلى الله عليه وسلم وقعت حادثة سرقة، والسارقة من بني مخزوم، من قريش وهي القبيلة التي ينتسب إليها الرسول صلى الله عليه وسلم، وبنو مخزوم منهم خالد بن الوليد رضي الله عنه، وهو في عرف اليوم يعتبر وزير الدفاع في حياته صلى الله عليه وسلم وقائداً من قواده، وهنا يرجع المجتمع إلى معالجة الحادثة وفق ما كان لديهم في الجاهلية من معالجات خاطئة تحابي الشريف، وتستقصي الحق من الوضيع، ويحاولون عبر تشفيع من له لدى الرسول صلى الله عليه وسلم فيقترح على

٤٢- صحيح مسلم، ح ٢٥٧٧، ٤/ ١٩٩٤.

٤٣- البيهقي، السنن الكبرى، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، مكتبة دار الباز، مكة المكرمة، ١٤١٤هـ ٦ / ٧٤ . وهذا الحديث أصله في صحيح البخاري، انظر الحديث رقم: ٣٨١٦، ٦/١٤٨٦.

حبه وابن حبه أسامة بن زيد رضي الله عنه أن يكلم الرسول صلى الله عليه وسلم في هذا الأمر فحينئذ غضب الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم على المعالجة الخاطئة الفاشلة وبيّن أن هذا التعسف سبيل الأمم البائدة، فعن عائشة رضي الله عنها أن امرأة من بني مخزوم سرقت فقالوا: من يكلم فيها النبي صلى الله عليه وسلم؟ فلم يجترئ أحد أن يكلمه، فكلمه أسامة بن زيد فقال: "إن بني إسرائيل كان إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف قطعوه، لو كانت فاطمة لقطعت يدها"(٤٤). فبين صلى الله عليه وسلم أن الحق يجب أن يطبق على جميع أفراد الرعية حتى لو كانت السارقة هي ابنته فاطمة رضي الله عنها، وحاشاها أن تسرق.

وهذا العدل واجب مع القريب والبعيد ومع العدو والصديق حتى وإن ظلم فلا يسوّغ ظلمه تعدي الحق فيه، قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُحِلُّوا۟ شَعَـٰٓئِرَ ٱللَّهِ وَلَا ٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ وَلَا ٱلْهَدْىَ وَلَا ٱلْقَلَـٰٓئِدَ وَلَآ ءَآمِّينَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْوَٰنًا ۚ وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَٱصْطَادُوا۟ ۚ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ أَن تَعْتَدُوا۟ ۘ وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾(٤٥). وقال جل ثناؤه مذكراً عباده أن لواجب العدل وإن كان الذي عليه الحق قريباً فقيراً أو غنياً كريماً: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ ۚ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ۖ فَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُوا۟ ۚ وَإِن تَلْوُۥٓا۟ أَوْ تُعْرِضُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾(٤٦).

وبعد ما اتسعت الدولة الإسلامية وتعاظمت رقعتها وفتح القائد قتيبة رحمه الله مدينة سمرقند وأسكن فيها بعض المسلمين دون أن يستشير أهلها الأصليين؛ فساءهم هذا التصرف فتقدم وفد منهم إلى الخليفة وشكوا إليه ما لقوا من قائده فأخبروه أن قتيبة أسكن مدينتهم المسلمين، ولم يستشرهم في ذلك، فكتب عمر إلى عامله بأن ينصب لهم قاضياً ينظر فيما ذكروه فإن قضى بإخراج المسلمين أخرجوا، فنصب لهم القاضي جميع بن حاضر الباجي فحكم بإخراج المسلمين، ثم لما رأوا أن الأمر أصبح بأيديهم أقروا المسلمين فأقاموا بين أظهرهم(٤٧).

٤٤- صحيح البخاري، ح ٣٥٢٦، ٣/ ١٣٦٦

٤٥- سورة المائدة، الآية: ٢.

٤٦- سورة النساء، الآية: ١٣٥.

٤٧- قدامة بن جعفر، الخراج وصناعة الكتابة، دار الرشيد، العراق، ١/ ٤٠٨-٤٠٩.

المطلب الخامس: القوة:

التعريف: القُوَّةُ: خلاف الضعف. والقُوَّةُ: الطاقة من الحبل، وجمعها قوًى. ورجل شديد القوى، أي شديدُ أسرِ الخَلْقِ(٤٨).

القوة مقوّم من مقوّمات الحياة، ولا تستقيم الحياة إلا بها، وهي من علامات صحة الأفراد والأمم، وبها تحفظ الحقوق وتدفع المظالم، وترهبُ العدو، وتستكمل الأهداف، وينعم المجتمع بأسباب النعيم والرفاهية، وينال من كل أمر غايته؛ ولذا ترى الدول القوية لديها تعليم راق، ومستشفيات متكاملة وجيوش جرارة، وتواصل واتصال مع العالم على أعلى مستوى ...

والقوة في الإسلام لحفظ حقوق الأمة والأفراد، ودفع أطماع المغرضين والمتربصين. وهي تسهم في تحقيق بسط السيادة الإلهية وأن يكون الدين كله لله، ويكون خضوع البشر لله لا لجنس أو عنصر أو مصلحة أو غير ذلك، وأن ينال المجتمع كل متطلبات الحياة الكريمة التي تسهم في إسعاده وتدفع عنه غوائل الفساد والشر ... فهي في الإسلام عنصر بناء وركيزة عطاء، وسبيل لحفظ العدل وعدم طغيان عنصر على آخر، وإن وجد في تاريخ الإسلام استغلال للقوة لغير ذلك فهو نشاز ولا يقره الإسلام، ولا تعتبر القوة نافعة في هذا الدين ما لم تكن معها الأمانة فيكون الرجل قوياً أميناً، وتكون الأمة قوية أمينة، قال تعالى: ﴿ قَالَتْ إِحْدَىٰهُمَا يَـٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ ۖ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ ﴾(٤٩). أما القوة في غيره فهي في الغالب لتحقيق مآرب وأطماع جنس على حساب جنس آخر، أو لتحقيق مصالح دولة على أخرى، ومن أجل ذلك تنشأ الحروب وتتقاتل الدول وتتضرر الشعوب، وكم اكتوت البشرية بالحروب التي من هذا النوع كالحربين العالميتين الأولى والثانية، وكالحرب الباردة وكم أفنيت من شعوب وأبيدت من دول من أجل طغيان القوة، وبغي الأقوياء الذين لا يرعون حرمة ولا يحفظون ذمة، ولا يردعهم قانون ولا يخشون تقلب الحياة.

والإسلام الذي جاء شاملاً لكل عناصر ومقومات الحياة الكريمة أعطى هذا الجانب ما يستحقه من البيان والدلالة عليه، فتنوعت النصوص الشرعية التي تناولت هذا الجانب، ومن نظر فيها ـ وهي كثيرة جداً ـ وجد أن الله أمرنا أن نعد العدة اللازمة ونتخذ القوة التي يتطلبها الحال، قال تعالى: ﴿ وَأَعِدُّوا

٤٨- الصحاح في اللغة، مادة قوا. وانظر: الجمهرة، مادة قوا، ولسان العرب، مادة قوا.

٤٩- سورة القصص، الآية: ٢٦.

لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾(50). وأرشد الرسول صلى الله عليه وسلم إلى أعظم أسباب القوة بل أنكى أنواعها في ميدان الحرب فقال: "ألا إن القوة الرمي، ألا إن القوة الرمي، ألا إن القوة الرمي" وحذر الرسول صلى الله عليه وسلم أيضا من تعلم الرمي ثم تناسيه فقال: "من علم الرمي ثم تركه فليس منا أو قد عصى"(51)، وحينما ننظر اليوم في واقع الصدامات العسكرية نجد أن الشأن كل الشأن في ذلك للرمي فالصواريخ والقاذفات والقنابل والرمي بالبنادق هي التي عليها الاعتماد في الهيمنة العسكرية، والرسول صلى الله عليه وسلم قال هذا في وقت كان المؤثر في معاركه السيف والرمح والسهم، ولم تصنع بعد البنادق وغيرها، فقوله هذا يدل على إعجاز نبوي حيث أرشد إلى العناية بالرمي وبيّن أنه هو القوة الحقيقية.

وهذه القوة التي أمرنا باتخاذها والإعداد لها هي في دين المسلم حفظ للحقوق وردع للبغي والعدوان، إنها قوة تجنح إلى السلم، وتهفو إلى العدل؛ ولذا أرشد الله سبحانه عباده بعد الآية التي أمرهم فيها باتخاذ القوة إلى أن يجنحوا للسلم إن جنح إليه المخالف فقال تعالى: ﴿وَإِن جَنَحُوا۟ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾(52).

ومن نظر في النصوص الشرعية وجد أن الله أمر نبيه هودا عليه السلام أن يأمر قومه بطاعة الله وبالاستغفار من الذنوب والتوبة منها حتى يزيدهم الله قوة إلى قوتهم فقال جل ثناؤه: ﴿وَيَٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا۟ مُجْرِمِينَ﴾(53). وهذا توجيه لقوم هود وهو لكل قوم بعدهم كما هي عادة القرآن في ذكر الوصايا الإلهية.

وبيّن النبي الكريم صلى الله عليه وسلم أن الإنسان ينبغي أن يحرص على كل ما ينفعه في دينه ودنياه، لأن المؤمن القوي أحبّ إلى الله من المؤمن الضعيف، وفي هذا يقول صلى الله عليه وسلم: "المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف، وفي كل خير، احرص على ما ينفعك، واستعن بالله ولا تعجز، وإن أصابك شيء فلا تقل لو أني فعلت كان كذا وكذا، ولكن قل: قدر الله وما شاء فعل، فإن لو تفتح عمل الشيطان"(54).

٥٠- سورة الأنفال، الآية: ٦٠.

٥١- الحديثان في صحيح مسلم، ح ١٩١٧ و ١٩١٩، ٣/ ١٥٢٢.

٥٢- سورة الأنفال، الآية: ٦١.

٥٣- سورة هود، الآية: ٥٢.

٥٤- المرجع السابق، ح ٢٦٦٤، ٤/ ٢٠٥٢.

قال ابن القيم رحمه الله معلقاً على قوله صلى الله عليه وسلم: "احرص على ما ينفعك" سعادة الإنسان في حرصه على ما ينفعه في معاشه ومعاده، فإذا صادف ما ينتفع به الحريص كان حرصه محموداً، وكماله كله في مجموع هذين الأمرين: أن يكون حريصاً، وأن يكون حرصه على ما ينتفع به، فإن حرص على ما لا ينفعه، أو فعل ما ينفعه بغير حرص، فاته من الكمال بحسب ما فاته من ذلك، فالخير كله في الحرص على ما ينفع.

وقال أيضاً شارحاً قوله صلى الله عليه وسلم "واستعن بالله" لما كان حرص الإنسان وفعله إنما هو بمعونة الله ومشيئته وتوفيقه، أمره أن يستعين به ليجتمع له مقام إياك نعبد وإياك نستعين، فإن حرصه على ما ينفعه عبادة لله، ولا تتم إلا بمعونته، فأمره بأن يعبده ويستعين به. وقال غيره: استعن بالله أي اطلب الإعانة في جميع أمورك من الله لا من غيره، كما قال تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾[55] فإن العبد عاجز لا يقدر على شيء إن لم يعنه الله عليه، ولا معين له على مصالح دينه ودنياه إلا الله عز وجل فمن أعانه الله فهو المعان، ومن خذله فهو المخذول"[56].

وفي هذا الحديث حذر النبي صلى الله عليه وسلم من أن يقع الإنسان فريسة للوساوس والخطرات التي تجلب اليأس والقنوط إذا وقعت المقادير التي قد لا تتوافق مع ما تهواه النفس، وبيّن أن قول الإنسان إذا وقع المحذور: "لو" لا يفيده وإنما يفتح عليه باب الندم والحسرات. وقال القرطبي في **المفهم**: "المراد من الحديث الذي أخرجه مسلم أن الذي يتعين بعد وقوع المقدور التسليم لأمر الله والرضا بما قدر، والإعراض عن الالتفات لما فات، فإنه إذا فكّر فيما فاته من ذلك فقال: لو أني فعلت كذا لكان كذا، جاءته وساوس الشيطان، فلا تزال به حتى يفضي إلى الخسران، فيعارض بتوهم التدبير سابق المقادير، وهذا هو عمل الشيطان المنهي عن تعاطي أسبابه بقوله: فلا تقل لو فإن لو تفتح عمل الشيطان"[57].

ونخلص من هذا أن الحديث تضمن أربعة أمور:

١- أن المؤمن القوي أحبّ إلى الله من المؤمن الضعيف.

٢- أن المسلم مأمور بطلب ما ينفعه.

٥٥- سورة الفاتحة، الآية: ٥

٥٦- عبد الرحمن بن حسن آل الشيخ، فتح المجيد، الرئاسة العامة للبحوث العلمية والإفتاء، الرياض، ١٤١٣هـ، ٣٩٤، ٣٩٥

٥٧- الحافظ ابن حجر العسقلاني، فتح الباري، تحقيق: محب الدين الخطيب، دار المعرفة، بيروت، ١٣/ ٢٢٨.

٣- أن يستعين المرء بربه ولا يعجز.

٤- إذا أصابه ما يكره فلا يندم ويلتفت إلى الماضي ويتحسر على ما فات، بل يأخذ منه الدرس ويجدّ في طلب ما أراد، فالمؤمن لا يلدغ من جحر مرتين كما قال ذلك الرسول صلى الله عليه وسلم.

وحيث طُلب من المسلم أن يكون قوياً فقد تضمنت نصوص الشرع الدلالة على أسباب القوة ليأخذ بها والتحذير مما يناقضها ومن ذلك:

الأول: أن يعلم أن الله هو القوي المتين فيلجأ إليه ويستمد منه العون والتوفيق، وأمر أن يقول في كل أحواله: لا حول ولا قوة إلا بالله، وهذا يشعره أنه لا يستطيع أن يتحول من حال إلى حال ولا يجد قوة إلا من الله سبحانه وتعالى؛ ولذا فالمسلم لا يرهب قوة مهما عظمت، لأنه يعلم أن أزمّة الأمور بيديه سبحانه وتعالى. وخير شاهد على ذلك مواقف الأنبياء عليهم السلام مع الجبارين والمتكبرين فإبراهيم يجادل النمرود، وموسى يجادل فرعون، ومحمد يجادل الملأ من قريش ويخرج هؤلاء منتصرين رغم قوة الخصم وتكامل عدته واستعداده، وكلهم كان لسان حاله كما أخبر الله عنهم أنهم قالوا لقومهم: ﴿وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَا ۚ وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿١٢﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۖ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٣﴾ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِى وَخَافَ وَعِيدِ﴾[٥٨].

الثاني: أن يأخذ الشرائع والأوامر بقوة غير متوان ولا هياب، قال تعالى لموسى عليه السلام: ﴿وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا۟ بِأَحْسَنِهَا ۚ سَأُو۟رِيكُمْ دَارَ ٱلْفَـٰسِقِينَ﴾[٥٩]. وذكّر الله بني إسرائيل على لسان رسولنا محمد صلى الله عليه وسلم بما أخذ عليهم فقال جل ثناؤه وتقدست أسماؤه: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَـٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَـٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُوا۟ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾[٦٠]. وأخبرنا سبحانه أنه أمر يحيى عليه السلام أن يأخذ الكتاب بقوة ويعمل به، قال تعالى: ﴿يَـٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَـٰبَ بِقُوَّةٍ ۖ وَءَاتَيْنَـٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا﴾[٦١]. وهذا الأمر بالأخذ بالقوة كما أنه يتجه إلى الشرائع والأوامر فهو أيضاً يتجه إلى جميع مناحي الحياة فينبغي أن تؤخذ

٥٨- سورة إبراهيم، الآيات: ١٢-١٤.

٥٩- سورة الأعراف، الآية: ١٤٥.

٦٠- سورة البقرة، الآية: ٦٣.

٦١- سورة مريم، الآية: ١٢

بقوة فيعمل الإنسان فيها يحقق مصالحه ومصالح أمته من غير تكاسل أو تراخ.

الثالث: أن يبذل الأسباب ويتوكل على الله سبحانه وتعالى، فلا توكله يمنعه من أخذ الأسباب، ولا معرفته بتأثير الأسباب يجعله يتعلق بها ويستغني عن ربه؛ ولذا لما قال رجل للرسول صلى الله عليه وسلم: أرسلُ ناقتي وأتوكل؟ قال: اعقلها وتوكل[٦٢]. فأمره أن يبذل السبب ويتوكل على الله.

الرابع: الرضا بالنتائج التي تؤول إليها اجتهاداتنا والرضا كذلك بما نصاب به من المصائب، لأن المسلم يعلم أنما أصابه لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه، ومن أجل ذلك فلا تدفعه المصائب والاجتهادات الخاطئة إلى القعود والعجز والكسل.

وهذا الأمر والذي قبله يجعل المسلم متداماً لا يرهب، وشجاعاً لا يجبن، ويمنحه الطمأنينة في سائر أعماله، لإيمانه العميق بأن الله هو المقدر، وهو وحده المعين، وهو الموفق والمسدد سبحانه وتعالى.

الخامس: التحذير من تضييع أمر الله فإذا ضيع البشر أمر الله وعصوا رسله فحينئذ يتنزل عليهم العذاب، وهذه سنة ربانية لا تتخلف ولكنها قد تتأخر لحكمة يعلمها الله سبحانه وتعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۖ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٣﴾ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِى وَخَافَ وَعِيدِ ﴾[٦٣]. وقال جل ثناؤه مرشداً الأحياء إلى مصير السابقين ومآلهم: ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ۖ وَلِلْكَٰفِرِينَ أَمْثَٰلُهَا ﴾[٦٤]. وكل فساد في العالم فسببه مخالفة أمر الرسل عليهم الصلاة والسلام، قال تعالى: ﴿ ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾[٦٥].

السادس: التحذير مما ينقض القوة ويذهبها والذي ينقضها أمران:

أحدهما: الاختلاف والتفرق، قال تعالى: ﴿ وَلَا تَنَٰزَعُوا۟ فَتَفْشَلُوا۟ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ۖ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾[٦٦]. والمراد بالريح القوة في الحرب [٦٧] فالاختلاف يذهب بالقوة، ويورث

٦٢- صحيح ابن حبان، ٢/ ٥١٠، سنن الترمذي، تحقيق: أحمد شاكر، دار إحياء التراث، بيروت، ٤/ ٦٦٨.

٦٣- سورة إبراهيم، الآيتان: ١٣، ١٤.

٦٤- سورة محمد، الآية: ١٠

٦٥- سورة الروم، الآية: ٤١.

٦٦- سورة الأنفال، الآية: ٤٦.

٦٧- فتح الباري، ٦/ ١٦٣.

الضعف، هذا على مستوى المجتمع، أما على مستوى الفرد فقد حذر الله من التردد بعد العزم، قال تعالى: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ﴾[68].

الثاني: الاغترار بالقوة والكثرة؛ لأن ذلك يفضي إلى ترك التوكل على الله، كما أنه يؤدي إلى الاستهانة بالمقابل، قال سبحانه وتعالى لنبيه وصحابة نبيه صلى الله عليه وسلم: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ۝ ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾[69].

وأخبر عن مصير الأمم الماضية التي استكبرت واغترت بقوتها وكثرتها فلم تغن عنها من الله شيئا فقال سبحانه: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَكَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَيْءٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا﴾[70].

المطلب السادس: احتمال المخالف:

أن تتحمل النفسُ القريبَ منها فتصبر على جهله، وتسكت على سفهه، وتتغاضى عن تقصيره، وتحسن إليه وإن ظلم .. فهذا أمر مألوف في عرف البشر، أما أن تتحمل النفسُ العدوَ فتعدل معه، وتصبر على تطاوله، وتعفو عنه، وتحسن إليه وترحمه... إلى غير ذلك مما لا تتسامى إليه إلا الأنفس الزكية، فهذا لم يعهد في تاريخ البشر إلا ممن ساروا على المنهج الإلهي القويم الذي شرعه ودعا إليه، ولأن الإسلام شرعته ومنهاجه فقد تضمن أكمل بل أسمى تعامل مع المخالف، وفي التوجيهات القرآنية والنبوية منهج راشد وسنة متبعة ونماذج رائعة ضربت أروع الأمثلة في احتواء المخالف والإحسان إليه، فمن ذلك:

وجوب العدل مع العدو وإن جار وظلم، قال تعالى: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ أَن تَعْتَدُوا۟ وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾[71]. أتدري متى نزلت هذه الآية الكريمة التي تضمنت هذا التوجيه السديد؟! إنها نزلت عقيب أن صدّ عبدة الأصنام الرسولَ صلى الله عليه وسلم وأصحابه الكرام عن أن يطوفوا بالبيت العتيق

٦٨- سورة آل عمران، الآية: ١٥٩.

٦٩- سورة التوبة، الآيتان: ٢٥، ٢٦.

٧٠- سورة فاطر، الآية: ٤٤.

٧١- سورة المائدة، الآية: ٢.

ويعبدوا ربهم عنده، أرأيت كيف كان التوجيه الإلهي عظيماً وحاسماً في توجيه الرسول صلى الله عليه وسلم وصحبه إلى توخي العدل، والحذر من أن يدفعهم بغضهم لعدوهم إلى تجاوز الحد، وانظر كيف ختمت الآية بالأمر بلزوم التقوى، والتذكير بأن الله شديد العقاب، قال ابن جرير رحمه الله عند تفسير هذه الآية: "ولا يحملنكم بغض قوم لأن صدوكم عن المسجد الحرام أيها المؤمنون أن تعتدوا حكم الله فيهم فتجاوزوه إلى ما نهاكم عنه، ولكن الزموا طاعة الله فيما أحببتم وكرهتم"[٧٢]. وهذا العدل مع المخالف لا يورث الذل والاستكانة؛ لأنه سبحانه شرع استيفاء الحقوق، وندب إلى العفو كما هو مبسوط في موضوع "العدل" من هذا البحث.

ومع أن الإسلام شرع العدل مع المخالف فقد شرع بل أوجب على المسلمين أن يقدموا الهداية لغيرهم ليشاركوهم هذا الخير العظيم لأن الرسالة الخاتمة رسالة لجميع البشر. ليست رسالة خاصة أو عنصرية أو وطنية. وأمر الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم أن يقول للناس كافة: ﴿ قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَـٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾[٧٣]. وقارن هذا ولا سواء مع موقف المسيح عليه السلام مع المرأة التي طلبت منه أن يشفي ابنتها، فكان هذا الموقف كما يرويه كتاب الأناجيل "لأَنَّ امْرَأَةً كَانَ بِابْنَتِهَا رُوحٌ نَجِسٌ سَمِعَتْ بِهِ، فَأَتَتْ وَخَرَّتْ عِنْدَ قَدَمَيْهِ. ٢٦ وَكَانَتِ الامْرَأَةُ أُمَمِيَّةً، وَفِي جِنْسِهَا فِينِيقِيَّةً سُورِيَّةً. فَسَأَلَتْهُ أَنْ يُخْرِجَ الشَّيْطَانَ مِنِ ابْنَتِهَا. ٢٧ وَأَمَّا يَسُوعُ فَقَالَ لَهَا: "دَعِي الْبَنِينَ أَوَّلاً يَشْبَعُونَ، لأَنَّهُ لَيْسَ حَسَنًا أَنْ يُؤْخَذَ خُبْزُ الْبَنِينَ وَيُطْرَحَ لِلْكِلاَبِ". مرقس: ٧ ٢٦-٢٧. وفي متى "لاَ تُعْطُوا الْقُدْسَ لِلْكِلاَبِ، وَلاَ تَطْرَحُوا دُرَرَكُمْ قُدَّامَ الْخَنَازِيرِ، لِئَلاَّ تَدُوسَهَا بِأَرْجُلِهَا وَتَلْتَفِتَ فَتُمَزِّقَكُمْ". متى ٧:٦.

ولا لوم على المسيح في هذا الموقف فقد كانت رسالته خاصة لبني إسرائيل ولم تكن للناس عامة، كما نقل عنه متى أنه حدد نطاق رسالته فقال: "هؤُلاَءِ الاثْنَا عَشَرَ أَرْسَلَهُمْ يَسُوعُ وَأَوْصَاهُمْ قَائِلاً: "إِلَى طَرِيقِ أُمَمٍ لاَ تَمْضُوا، وَإِلَى مَدِينَةٍ لِلسَّامِرِيِّينَ لاَ تَدْخُلُوا. بَلِ اذْهَبُوا بِالْحَرِيِّ إِلَى خِرَافِ بَيْتِ إِسْرَائِيلَ الضَّالَّةِ" متى ١٠: ٥،٦.

وكما شرعت دعوته إلى الإسلام فقد أمرنا بالصبر على المخالف إذا جهل، والحلم عنه إذا سفه.

٧٢- جامع البيان، ٦/ ٦٦.

٧٣- سورة الأعراف، الآية: ١٥٨.

وفي موقف الرسول صلى الله عليه وسلم مع الحبر اليهودي زيد بن سعنة الذي تطاول على الرسول صلى الله عليه وسلم بين أصحابه رضي الله عنهم، وإذا أردت أن تعرف أبعاد خطورة هذا الموقف فلا يغب عن ذهنك أن محمداً صلى الله عليه وسلم هنا هو الرسول ورأس الدولة وبين ملأ من أصحابه، وهذا المتطاول من غير جنسهم، بل من غير دينهم، ومع ذلك فقد كان حلمه صلى الله عليه وسلم معه سبيلاً إلى هدايته للإسلام، وهذه تفاصيل هذا الخبر الصحيح العجيب الذي يرويه أهل السنن:

فعن عبدالله بن سلام قال: "إن الله عز وجل لما أراد هدى زيد بن سعنة قال زيد بن سعنة: ما من علامات النبوة شيء إلا وقد عرفتها في وجه محمد صلى الله عليه وسلم حين نظرت[74] إليه إلا اثنتين لم أخبرهما منه: يسبق حلمه جهله، ولا يزيده شدة الجهل عليه إلا حلماً، فكنت ألطف له لأن أخالطه فاعرف حلمه من جهله، قال زيد بن سعنة: فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم يوماً من الحجرات ومعه علي بن أبي طالب، فأتاه رجل على راحلته كالبدوي فقال: يا رسول الله! إن بصرى بقرب قرية بني فلان قد أسلموا ودخلوا في الإسلام، وكنت حدثتهم إن أسلموا أتاهم الرزق رغداً، وقد أصابتهم سنة وشدة وقحوط من الغيث، فأنا أخشى يا رسول الله أن يخرجوا من الإسلام طمعاً كما دخلوا فيه طمعاً، فإن رأيت أن ترسل إليهم بشيء تعينهم به فعلت، فنظر إلى رجل إلى جانبه أراه علياً، فقال يا رسول الله ما بقي منه شيء، قال زيد بن سعنة فدنوت إليه فقلت: يا محمد! هل لك أن تبيعني تمراً معلوماً من حائط بني فلان إلى أجل كذا وكذا. فقال لا يا يهودي ولكني أبيعك تمرا معلوما إلى أجل كذا وكذا، ولا تسمي حائط بني فلان، قلت نعم فبايعني، فأطلقت همياني[75]. فأعطيته ثمانين مثقالاً من ذهب في تمر معلوم إلى أجل كذا وكذا، فأعطاها الرجل وقال أعجل اعدل عليهم وأعنهم بها، قال زيد بن سعنة فلما كان قبل محل الأجل بيومين أو ثلاث خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعه أبو بكر وعمر وعثمان في نفر من أصحابه فلما صلى على الجنازة ودنا من جدار ليجلس أتيته فأخذت بمحامع قميصه وردائه ونظرت إليه بوجه غليظ، فقلت له: ألا تقضيني يا محمد حقي، فو الله ما علمتكم بني عبد المطلب لمطل، ولقد كان لي

---

74 علامات النبوة التي عرفها الحبر زيد والتي ظنها قد قرأها زيد في التوراة والإنجيل، ذلك أن خبره صلى الله عليه وسلم لا يزال مذكوراً في كتبهم، وقد صنف الذين اهتدوا من علماء اليهود والنصارى مصنفات كثيرة يذكرون فيها هذه النصوص، فمن هذه الكتب: **إفحام اليهود** للسموأل المغربي، وكتاب **الدين والدولة في إثبات نبوة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم** لعلي بن ربن الطبري، و**تحفة الأريب** لأنسلم تورميدا الذي أسلم وتسمى بعبد الله الترجمان، و**محمد في الكتاب المقدس** لعبد الأحد داود، وكل هؤلاء كانوا يهوداً أو نصارى ثم أسلموا وصنفوا هذه المصنفات

٧٥- الهميان هو المنطقة وكيس النفقة الذي يشد في الوسط. **القاموس المحيط**، مادة "هيمن".

لمخالطتكم علم، ونظرت إلى عمر وإذا عيناه تدوران في وجهه كالفلك المستدير، ثم رماني ببصره فقال: يا عدو الله أتقول لرسول الله صلى الله عليه وسلم ما أسمع وتصنع به ما أرى؟! فوالذي بعثه بالحق لولا ما أحاذر فوته لضربت بسيفي رأسك. ورسول الله صلى الله عليه وسلم ينظر إلى عمر في سكون وتؤدة وتبسم!. ثم قال: يا عمر! أنا وهو كنا أحوج إلى غير هذا، أن تأمرني بحسن الأداء، وتأمره بحسن اتباعه، اذهب به يا عمر فأعطه حقه، وزده عشرين صاعاً من تمر مكان مازعته، قال زيد: فذهب بي عمر فأعطاني حقي، وزادني عشرين صاعاً من تمر، فقلت: ما هذه الزيادة يا عمر؟ قال: أمرني رسول الله صلى الله عليه وسلم أن أزيدك مكان مازعتك، قال: وتعرفني يا عمر؟! قال: لا، فما دعاك أن فعلت برسول الله صلى الله عليه وسلم ما فعلت وقلت له ما قلت؟ قلت: يا عمر لم يكن من علامات النبوة شيء إلا وقد عرفتها في وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم حين نظرت إليه إلا اثنتين لم أخبرهما منه: يسبق حلمه جهله، ولا يزيده شدة الجهل عليه إلا حلماً، فقد اختبرتهما فأشهدك يا عمر أني قد رضيت بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد نبياً، وأشهدك أن شطر مالي ـ فإني أكثرها مالاً ـ صدقة على أمة محمد. قال عمر: أو على بعضهم، فإنك لا تسعهم. قلت: أو على بعضهم. فرجع عمر وزيد إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال زيد: أشهد أن لا اله إلا الله، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، وآمن به وصدقه وبايعه وشهد معه مشاهد كثيرة، ثم توفي في غزوة تبوك مقبلاً غير مدبر"(٧٦). فتأمل هذا الخبر العجيب وكيف انتهى به الحال فقد جاء مختبراً، ورجع مسلماً، وعاش داعياً إلى الله متبعًا لسنة الرسول صلى الله عليه وسلم حتى توفي وهو يجاهد في سبيل الله.

وهذا عبدالله بن أبيّ بن سلول رئيس المنافقين كان رأساً في التحريض على الرسول صلى الله عليه وسلم وهو الذي خذّل عنه ورجع عنه بثلث الجيش يوم أحد(٧٧) لما توفي صلى عليه الرسول صلى الله عليه وسلم واستغفر له ففي الصحيح عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال: "لما مات عبد الله بن أبيّ ابن سلول دعا له رسول الله صلى الله عليه وسلم ليصلي عليه فلما قام رسول الله صلى الله عليه وسلم

٧٦- محمد بن عبد الواحد المقدسي، **الأحاديث المختارة**، تحقيق: عبد الملك بن دهيش، مكتبة النهضة الحديثة، مكة المكرمة، ط ١، ١٤١٠هـ ٩/ ٤٤٦-٤٤٨، و**المستدرك على الصحيحين**، ٣/ ٧٠٠، وقال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه وهو من غرر الحديث، و**صحيح ابن حبان**، ١/ ٥٢٣، و**السنن الكبرى** للبيهقي، ٦/ ٥٢.

٧٧- ينظر: **مصنف عبد الرزاق**، تحقيق: حبيب الرحمن الأعظمي، المكتب الإسلامي، بيروت، ط ٢، ١٤٠٣هـ، ٥/ ٣٦٥، وابن كثير، **تفسير القرآن العظيم**، دار الفكر، ١٤٠١هـ ١/ ٤٠١.

وثبت إليه فقلت: يا رسول الله أتصلي على ابن أبي؟ وقد قال يوم كذا كذا وكذا وكذا قال أعددُ عليه قوله، فتبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال: أخر عني يا عمر! فلما أكثرت عليه قال: إني خيرت فاخترت، لو أعلم أني إن زدت على السبعين يغفر له لزدت عليها. قال: فصلى عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم انصرف"(٧٨). ثم شهد جنازته وأعطى الرسولُ صلى الله عليه وسلم ابنه قميصه ليكفّنه به لعل الله أن يخفف عنه، فانظر إلى هذا العفو والكرم وإلى عظم هذا التعالي عن الزلل ونسيان الأذى كيف والرجل قد ولّى ومات ودفن فلا يرجى خيره، ولا يخشى شره، لكنها النفوس الأبية تأبى إلا السموّ والإحسان إلى الناس، وتحمل أذاهم والصبر عليهم.

وليس الصبر على المخالف هو كل ما يندب إليه المسلم بل شرع له أن يرحمه ويسعى في إنقاذه ونجاته من النار، وقد كان صلى الله عليه وسلم يتعب نفسه في سبيل هداية غير المسلمين؛ ولذا قال له الله جل في علاه: ﴿ فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا ﴾(٧٩). وقال سبحانه وتعالى: ﴿ أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا ۖ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۖ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴾(٨٠). وفي الخبر التالي ما يبين للقارئ حرصه الشديد صلى الله عليه وسلم على هداية المخالف إلى آخر لحظة، فقد كان غلام يهودي يخدم النبي صلى الله عليه وسلم فمرض، فأتاه النبي صلى الله عليه وسلم يعوده فقعد عند رأسه، فقال له: "أسلم. فنظر إلى أبيه وهو عنده فقال له: أطع أبا القاسم صلى الله عليه وسلم فأسلم فخرج النبي صلى الله عليه وسلم وهو يقول: الحمد لله الذي أنقذه من النار"(٨١).

ونفائس هذا المنهج الإلهي في التعامل مع المخالف لا تنتهي ولن يسعها هذا البحث المختصر، وإنما نذكر ما يرغّب القارئ في الاستزادة من التعرف على عقائده وأحكامه ومبادئه وقيمه، ومن ذلك أن الله شرع لمن اعتُدي عليه وكان قادراً على استيفاء حقه، وكان المعتدي أهلاً للعفو، ويصلحه العفو والإحسان ـ أن يعفو المعتدى عليه، قال تعالى: ﴿ وَجَزَٰٓؤُا۟ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ۖ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۚ

٧٨- صحيح البخاري، ح ٤٣٩٤، ٤/ ١٧١٥.

٧٩- سورة الكهف، الآية: ٦.

٨٠- سورة فاطر، الآية: ٨.

٨١- المرجع السابق، ح ١٢٩٠، ١/ ٤٥٥.

﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[٨٢]. ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ ۖ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ﴾[٨٣]؛ ولذا لما دخل الرسول صلى الله عليه وسلم مكة منتصراً وبين يديه من كانوا يؤذونه ويقتلون أصحابه واضطروهم جميعاً إلى الهجرة من مكة قال لهم الكلمة المشهورة حين اجتمعوا في المسجد: "ما ترون أني صانع بكم؟! قالوا: خيراً أخ كريم وابن أخ كريم. قال: اذهبوا فأنتم الطلقاء"[٨٤].

والتعامل مع المخالف لا يقف عند هذا الحد بل جاء التوجيه الإلهي بالبر والإحسان إلى المخالف الذي لم يقاتل المسلمين ولم يخرجهم من ديارهم فقال سبحانه وتعالى: ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾[٨٥]. قال ابن جرير رحمه الله: "وأولى الأقوال في ذلك بالصواب قول من قال: عني بذلك لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين من جميع أصناف الملل والأديان أن تبروهم وتصلوهم وتقسطوا إليهم"[٨٦]. وفي الصورة التالية تطبيق لهذا المنهج وسير عليه فعن أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما قالت: قدمت عليّ أمي وهي مشركة في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم، فاستفتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم قلت: إن أمي قدمت وهي راغبة؛ أفأصل أمي؟ قال نعم صلي أمك"[٨٧].

والمتصفح لسيرة الرسول صلى الله عليه وسلم يجد بعض المواقف التي وقعت بينه وبين بعض اليهود والنصارى المعاصرين له، وذكر هذه المواقف والأحداث لا يحتمله هذا البحث الموجز؛ لكن أقول: لم يكن موقف الرسول صلى الله عليه وسلم من اليهود أو النصارى موقفاً عنصرياً بسبب ذواتهم أو انتمائهم العرقي، فقد كان يخدمه غلام يهودي، ويبيع ويشتري منهم كما مر معنا في خبر زيد بن سعنة، ومات صلى الله عليه وسلم ودرعه مرهونة عند يهودي[٨٨]، وكان يأتي الحبر من اليهود إلى مجلسه صلى الله عليه وسلم فيتحدث اليهودي عما يجده من الحق في التوراة فيصدقه النبي صلى الله عليه وسلم[٨٩].

٨٢- سورة الشورى، الآية: ٤٠.

٨٣- سورة النحل، الآية: ١٢٦.

٨٤- البيهقي، السنن الكبرى، ٩/ ١١٨.

٨٥- سورة الممتحنة، الآية: ٨.

٨٦- جامع البيان، ٢٨/ ٦٦.

٨٧- صحيح البخاري، ح ٢٤٧٧، ٢/ ٩٢٤، وصحيح مسلم، ح ١٠٠٣، ٢/ ٦٩٦.

٨٨- صحيح البخاري، ح ١٩٦٣، ٢/ ٧٢٩.

٨٩- صحيح مسلم، ح ٢٧٨٦، ٤/ ٢١٤٧.

كما لم يكن موقفه منهم بسبب أسماء أديانهم؛ لأن الدين الذي جاء به موسى وعيسى عليهما السلام هو الدين الذي جاء به محمد صلى الله عليه وسلم من حيث الأصول والقواعد، لأن كل الرسل صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين جاؤوا بالدعوة إلى الوحدانية وطاعة ومتابعة الرسول المرسل، لكن اليهود والنصارى الذين عاصرهم الرسول صلى الله عليه وسلم كان أكثرهم على خلاف ما جاء به الأنبياء والمرسلون؛ لذا كان التشنيع عليهم ونقض مفترياتهم وكشف شبهاتهم،كما في قوله عز شأنه: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً ۖ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ ۙ وَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ ۚ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱصْفَحْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣﴾ وَمِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ أَخَذْنَا مِيثَٰقَهُمْ فَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَاوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ ٱللَّهُ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ﴾[٩٠]. وتأمل قوله تعالى: ﴿إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ﴾ فلم تعم الآية كل القوم بل وصفت وحددت المراد.

وفي الآية التالية نرى نعي القرآن عليهم لموقفهم الأثيم من الحق ورغبتهم في صد الناس عنه، قال جل ثناؤه: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٨﴾ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنتُمْ شُهَدَآءُ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تُطِيعُوا۟ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ كَٰفِرِينَ ﴿١٠٠﴾ وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُۥ ۗ وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[٩١].

ومع كل ذلك فكان الإنصاف سمة منهج الإسلام مع المخالف ومع غيره، كما في قوله تعالى: ﴿وَمِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِمًا ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لَيْسَ عَلَيْنَا فِى ٱلْأُمِّيِّۦنَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾[٩٢]، وكما في قوله تعالى: ﴿لَيْسُوا۟ سَوَآءً ۗ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١٣﴾ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَأُو۟لَٰٓئِكَ

٩٠- سورة المائدة، الآية: ١٣، ١٤.

٩١- سورة آل عمران، الآيات: ٩٨ - ١٠١.

٩٢- سورة آل عمران، الآية: ٧٥.

مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٤﴾ وَمَا يَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ ﴾[٩٣].

وبعد هذا التطواف الجميل مع قيم الإسلام ومثله ومبادئه لا يجد الباحث بدًا من الاعتراف بالعجز عن الإحاطة عن كل ما شمله الإسلام؛ لأنه يعلم أن ما تركه أكثر مما ذكره، وما أشار إليه أقل مما تجب الإشارة إليه، ومع ذلك أقول كما قال الدكتور محمد عبدالله دراز في ختام كتابه الجميل الدين: "إنه لن يسع الباحث المنصف متى تحقق من هذه الإحاطة العلمية الشاملة، إلا أن يرى فيها آية جديدة على أن القرآن المجيد ليس صورة لنفسية فرد، ولا مرآة لعقلية شعب، ولا سجلا لتاريخ عصر... وإنما هو كتاب الإنسانية المفتوح، ومنهلها المورود، فمهما تباعدت الأقطار والعصور، ومهما تتعدد الأجناس والألوان واللغات، مهما تتفاوت المشارب والنزعات سيجد فيه كل طالب للحق سبيلاً ممهداً يهديه إلى الله على بصيرة وبينة، قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾[٩٤][٩٥].

الخاتمة:

الحمد لله أولاً وآخراً، وظاهراً وباطناً، الحمد لله الذي شرع وقدر، وقضى فأحكم، وأمر ويسر، وأنذر وبشر، والحمد لله على ما منّ به ولطف من إتمام هذا البحث المتواضع الذي قصدت أن يكون مبيناً جانباً من عظمة هذا الدين العظيم، وأن يكون سبيلاً لدعوة غير المسلمين إلى الإسلام، ومن شكر الله علينا بهذا الدين أن نجتهد في تقريبه لغيرنا، وأن ندعوهم ليشاركونا فيه، وينعموا بالمنن الربانية والهداية الإلهية.

وقد ظهر لنا في هذا البحث أن الإسلام جاء بكل مقوّم من مقومات الحياة والأحياء فما من مقوم يحتاج إليه البشر إلا جاء الإسلام يدعو إليه سواء في ميدان العلم، أو ميدان الاجتماع، أو ميدان الإدارة.

وفي الختام أسأل الله أن يجعله من العلم النافع والعمل الخالص وأن يثقل به الموازين، وينفعنا به في الدارين، إنه ولي ذلك ومولیه والقادر عليه، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وآله وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

****

٩٣- سورة آل عمران، الآيات: ١١٣ـ ١١٥.

٩٤- سورة القمر، الآية: ١٧.

٩٥- محمد عبد الله دراز، الدين، دار القلم، ط ٢، ١٣٩٠هـ، ص ١٧٢.